١٢٨

روايات احلام

سنوات اللهب

www.elromancia.com
مرمورية

روايات احلام

سنوات اللهب

وقفا بصمت ينظران إلى بعضهما بعضاً، في عينيها ذهول وفي عينيه غضب متوحش، وتوهمت سيرينا أن السنوات عادت إلى ذلك المكان البعيد، في ذلك اليوم الذي لم تنسه قط والذي ستذكره حتى الممات...

... ورنّ صوته في أذنها من الماضي البعيد: تعال إلى هنا أيها الصبي!

هذا الصبي لم يكن وقتذاك إلا هي، فقد كان تنكرها بزي الرجال السلاح الوحيد الذي يحميها في جحيم الغابات والرجال، وكان المنادي قبطان مركب، رجل بدا لها فارساً أسطورياً في محنتها، فتوسلت إليه لينقذها... وقَبِل جيسكار فيذرستون مساعدتها إنما بشروطه...

كانت شروطاً صَعُب على سيرينا قبولها، ولكنها عرفت رغم صغر سنها أن الندم سيكون حليفها سواء أقبلت أم لم تقبل... والآن بعد سنوات الفراق الطويلة عندما عادت والتقت به فكرت: ألم يكن من الأفضل لها لو بقيت في أرض الضياع تلك ولم تتعرف إلى جيسكار فيذرستون؟

١ ـ الماضي في المرآة

كانت سيرينا تقف قرب منصة الرسم لكن قلمها كان يدور بإهمال بين أصابعها النحيلة.. في يدها اليسرى خواتم فضية ضخمة وفي اليمنى سلاسل ذهب هندي. فجأة شعرت بانزعاج سببه رنين الهاتف المنزلي المرح، فرفعت السماعة: نعم؟

أتاها صوت البائعة في صالة العرض: وصلت الكونتيسة.

كانت الكونتيسة واحدة من أولى زبونات سيرينا المهمات منذ أن افتتحت محلها في الشارع القصير المسمى «بيوشامب بلايس»، حيث تأتي معظم النساء الأنيقات في لندن ومن كل أنحاء العالم سعياً وراء الملابس الأنيقة والاكسسوارات المذهلة.

ـ سأنزل فوراً.. شكراً لك مارسي.

نزلت سيرينا عن كرسيها الخشبي المرتفع، ونظرت بسرعة من النافذة فرأت سطح الرولزرويس البيج، والمرأة المتدثرة بالفراء تهم بالنزول من السيارة.

عندما وصلت الكونتيسة كانت سيرينا في مشغلها المستخدم كمستودع في الطابق الثاني من المبنى حيث تبتدع الثياب الجميلة المميزة التي صنعت منذ ثلاث سنوات من اسم بلانكا ڤيرونزي اسماً معروفاً.

قارنت إحدى مجلات الأزياء ذات النفوذ سيرينا بشيراليين كابريكورن، المصممة الأمريكية.. لكن سيرينا كانت تعرف أن دعمها المالي هو الذي وفّر عليها التسلق الصعب لتحقيق الاعتراف بها والشهرة، ودون ذلك الدعم لكانت مرت عشر سنوات أو أكثر قبل أن تتمكن من

تثبيت موطىء قدم لها في العمل في أي مكان، هذا عدا هذا المكان المميز من لندن، حيث لا يمكن بتصميماتها أن تفشل في لفت أنظار ذلك النوع من الزبائن الذين تعتمد عليهم في نجاحها.

تفحصت مظهرها في المرآة الطويلة قرب الباب قبل أن تنزل إلى صالة العرض. كانت في بعض الأيام ترى صورتها المنعكسة في المرآة وكأنها شخص غريب، واليوم وهي تنظر إلى نفسها رددت: هذه ليست أنا.. ماذا حدث لسيرينا الأصلية؟

كانت سيرينا تعتقد أن الآلاف من الناس يرون شخصية مختلفة في المرآة عما يراهم من ينظر إليهم.

دخلت إلى صالة العرض فوجدت الكونتيسة مستغرقة في حديث مع مساعدتها وهي ترتدي فراء ثعلب أحمر.

قالت سيرينا: مساء الخير لايدي لوكوود.

ـ مرحباً بلانكا.. كيف حالك.. لا أقوى على الانتظار حتى أرى الفستان الجديد الذي أخبرتني عنه مارسي وأنت في إيطاليا.

عادت الكونتيسة مؤخراً من عطلة في «الفيجي».. كان وجهها القابع تحت قبعة من فراء الثعلب الأحمر أسمر بنياً، كما كان وجه سيرينا يوماً منذ زمن بعيد.

قالت سيرينا وفي صوتها بعض الشك:

ـ أرجو أن يعجبك.

لكنها كانت تعرف أن الكونتيسة ستجد أنه لا يقاوم. خلعت اللايدي لوكوود قبعتها ومعطفها فبان جسد نحيل يرتدي كنزة من الكشمير الأخضر الفاتح، وسروالاً من نفس اللون دسته تحت حذاء عالي الساقين لونه رمادي فاتح.

جلست على كنبة تخبئها عن أنظار الناس ستارة سوداء وذهبية هي الستارة الخلفية لنافذة العرض.. كان الباقي من صالة العرض مفتوحاً للنظر من جهة الشارع ليتمكن المارة من رؤية الواجهات وما خلفها من الفساتين المعلقة على المشاجب حول الجدران.. هناك فساتين من الساتان والمخمل والحرير والتفتا والحرير الشفاف المغشى.. كل هذه

الفساتين تحمل توقيع بلانكا ڤيرونزي الخفي الذي يجعل النساء اللواتي يرتدينها يشعرن أنهن من نخبة القوم.

كانت الفساتين غير مرتبطة بزمن فهي تصلح لكل موسم.. عادة كانت تلك الملابس تختطف اختطافاً من وكالات بيع الفساتين الفاخرة حتى وهي مستعملة.. ولا يمكن لأحد التخلي عنها سوى النساء الثريات أمثال الكونتيسة القادرات على شراء العديد منها كل سنة.. وسيرينا لا تعرض مجموعة مخصصة للمواسم فهي تستمر بالتصميم طوال السنة وتحجب الموديلات المبتكرة.. دائماً يوجد حوالي الخمسين ثوباً.. لكن أحياناً تحتفظ بتصميم خاص دون أن تعرضه في العلن، بل يبقى بعيداً عن الأنظار في الخزانة ليعرض على زبائن مميزين يستأهلون معاملة خاصة. كانت إحداهن أميرة من العائلة المالكة والأخرى نجمة سينما، والثالثة هي الكونتيسة.

جاءت الكونتيسة إلى المحل خلال غياب سيرينا في إيطاليا، وبحثت عن فستان ترتديه لأول حدث اجتماعي هام في موسم لندن..

مارسي التي كانت تعرف أن الأميرة حامل والممثلة منهمكة بتصوير فيلم طويل.. أفضت للكونتيسة بأن هناك زياً جديداً سيجهز هذا اليوم بالذات.. عندما جلست اللايدي لوكوود بترقب على الكنبة ذهبت مارسي إلى الخزانة المكسوة واجهتها بالمرايا لتحضر الفستان الجديد مع أن سيرينا التي وضعت تصاميمه وشاركت في رسم التطريز على قماشه، لم تكن قد شاهدته مكتملاً بعد، لأنها عادت من إيطاليا في وقت متأخر من الليل الفائت.. ولم يكن الفستان بدوره قد وصل من المعمل عندما غادرت المحل لموعد غداء عمل. وعندما أخبرتها مارسي بعد عودتها بوصول الفستان ردت ودون اهتمام مما أثار حيرة مساعدتها:

ـ سأنظر إليه لاحقاً عندما تأتي اللايدي لوكوود.

كان الرجل الذي واعدها للغداء في مطعم «ماكوزين» هو سبب عدم اهتمامها غير العادي وذلك لأنه طلبها للزواج.

ورفضت طلبه وبهذا أنهت صداقة عرفت أنها ستستفقدها، وقد تندم على رفضها.

جاءت مارسي بالفستان متباهية تجعل تنورته تلوح وتلمع.. كان لونه أزرقاً قاتماً.. اللون كان يتغير مع كل حركة وهذه نتيجة أنجزت بعد سلسلة طويلة من التجارب مع طبقات مختلفة من الألوان وضعت بين الطبقة العليا من قماش الشيفون والحرير في الطبقة السفلى..

كان هذا التصميم بالنسبة لسيرينا أكثر الأفكار طموحاً وكلفة، حولته الآن إلى الواقع.. ما إن رأته اللايدي لوكوود حتى قفزت واقفة واختطفت المشجب من مارسي ووضعت الفستان على جسمها.

ـ إنه مذهل بلانكا.. ببساطة.. رائع! لقد تفوقت على نفسك بهذا التصميم.

ـ أنا مسرورة لأنه أعجبك.

ـ أعجبني كثيراً ولا أستطيع الانتظار حتى أرتديه!

ـ لكنه غالي الثمن كما أخشى.. كل هذا التطريز المعقد..

ـ لا تهمني كلفته.. هل أستطيع أن أجربه؟ هل هو على قياسي؟

هزت سيرينا رأسها فالفستان على قياسها وقياس اللايدي لوكوود.. اختفت الكونتيسة في غرفة القياس ورافقتها مارسي للمساعدة.

التفتت سيرينا بعينيها الخضراوين إلى الشارع المزدحم.. هذا فصل الربيع.. إن هذا الفصل من السنة يجعلها تشعر دائماً بالقلق.. لقد ولدت في انكلترا وأبعدت طويلاً عنها ورجعت إليها في الربيع حيث كان ربيعاً ريفياً بين مروج الدانتيلا البيضاء والليلكية الناعمة.

الآن عملها يجبرها على البقاء في لندن.. هناك منزل تراثي كبير للفنون التطبيقية يقع على بعد أقل من نصف ميل عن المحل، ومتحف ڤيكتوريا والبرت، وهم مصدر الكثير من الإلهام لها.. وبقربهم مطعم هارود الشهير، بقاعة طعامه الرائعة وهو لا يبعد عن «الهايد بارك» و «كينغزتون غاردن» حيث تستطيع أن تتمشى فوق العشب، أو أن تجلس على المقعد تراقب البط في الساقية المتلوية، أو نماذج المراكب في البركة المستديرة.

كانت توافق على قول الدكتور صامويل جونسون المأثور: حين يسأم المرء من لندن يسأم من الحياة. ففي لندن، يوجد كل ما يمكن أن توفره

الحياة.

قالت الكونتيسة عندما خرجت من غرفة القياس:

ـ ما يثير استغرابي هو من أين تحصلين على أفكارك؟ هذا الفستان يختلف عن أي تصميم صممته قبل الآن!

وقفت أمام المرآة تتمايل وتستدير لتتفحص صورتها من كل زاوية.. وقالت سيرينا:

ـ أتتني فكرة هذا الفستان وأنا أنحني فوق مقدمة مركب في ليلة كان فيها البحر فسفوري اللون.. بين حين وآخر كانت تمر كوكبة من الأسماك المتطايرة عبر المياه وكأنها النجوم المتحركة.

سألت الزبونة: ومتى كان هذا؟ خلال رحلة بحرية؟

ـ نوعاً ما.. أجل.

رأت سيرينا أن الفستان بحاجة إلى بعض التعديل ليصبح متناسقاً دونما عيوب.. سألت وهي تقيس وتسجل التعديلات:

ـ هل تحتوي مجوهرات العائلة على ما يدعى مطر الألماس لايدي لوكوود؟

ـ لا أظن هذا.. لماذا تسألين؟

ـ لأنها المجوهرات المناسبة لهذا الفستان.

ـ أنا لست واثقة ما نوعها؟ هل قلت مطر الألماس؟

ـ أجل.. لم أشاهدها بنفسي، لكنني سمعت وصفاً لها يوماً.. وكانت تراود تفكيري وأنا أصمم هذا الفستان.. مطر الألماس هو من العهد الڤيكتوري وربما كان نادراً هذه الأيام.

ـ أعرف أن والدة زوجي لديها الكثير من مجوهرات جدتها مجددة على طراز القرن العشرين، لأن التصاميم الڤيكتورية تعتبر قديمة الطراز وبشعة.. ولقد بدأت أتمنى لو أنني لم أجدد معظم أقراطها وعقودها.. لأن طرازها يعود مجدداً إلى البروز هذه الأيام.

بعد وقفة قصيرة تابعت:

ـ ربما أجد مطر الألماس.. سأقوم ببعض التحريات.. الآن ماذا عن الحذاء؟ ما رأيك؟

www.elromancia.com

قدمت سيرينا عدة اقتراحات، أخيراً اتفقتا على الاتصال بمحل آخر متخصص بالأحذية الموصى عليها، وسيصنع لها حذاء سهرة خفيف يصممه خصيصاً للفستان ويزينه بتطريز مماثل.

بعد ذهاب الكونتيسة وضبت مارسي الفستان في علبة لإعادته إلى المشغل لإجراء التعديلات عليه، عادت سيرينا وأخرجته من العلبة ووضعته على جسمها.. فقالت المساعدة:

- إنه يناسبك أكثر مما يناسب اللايدي لوكوود.. إنها بيضاء البشرة جداً بالنسبة له.. إنه فستان يناسب لون بشرتك الجميل.

كان شعر سيرينا بنياً تتخلله درجات من الاحمرار، بينما حاجباها ورموشها فاتحا اللون أكثر من شعرها.. قالت معترفة:

- لقد صممته لنفسي.. لكن كتجربة فقط وليس لألبسه.. أنا لا أذهب عادة إلى مناسبات تستدعي ارتداء فستان مثله.

لاحظت في تعابير وجه مارسي عدم فهم فتاة لو أعطيت الفرص التي لمخدومتها لكانت انغمست في الحياة الاجتماعية التي يتمتع بها معظم المصممين الناجحين بدلاً من تجنبها. لكن سيرينا لديها أسبابها للابتعاد عن كل دعاية شخصية حتى تحت اسمها المهني المستعار.. القليل من الناس يعرفون أن بلانكا ليس اسمها الأصلي، أو أنها بالرغم من أن فيها دماً أجنبياً، فالاسم الآخر ڤيرونزي لا علاقة له بأجدادها الطليان.

قالت بصوت أجش وهي تعطي الفستان لمساعدتها:

- يجب أن أعود إلى العمل.

بينما كانت تمر تحت قنطرة الباب في آخر المحل باتجاه السلم فتح أحدهم باب حجرة البيع داخل باب الشارع.

نظرت سيرينا من فوق كتفها، تعرف أن من دخل سيكون مرئياً في المرآة المذهبة في مؤخرة قاعة العرض.. لم يكن الداخل امرأة.. بل كان رجلاً طويلاً أسود الشعر ملوّحٌ وجهه بالشمس مثل وجه اللايدي لوكوود.

قال يكلم مارسي:

- مساء الخير! كنت أتوقع أن أجد صديقة هنا.

لمعت عينا سيرينا الخضراوان لسماع صوته بهجة وأطلقت شهقة حادة.. كانت قد ظنت أن عينيها تخدعانها وأنه ليس هو، بل شخص يشبهه إلى حد كبير. لكن الصوت.. العميق المتكاسل قليلاً عندما لا يكون حاداً أو مصرّاً، لا يمكنها أن تخطئه.. مع أن زمناً طويلاً مرّ منذ سمعته آخر مرة.

قالت مارسي: لا يوجد أحد هنا الآن.. لكن أهلاً بك إن أحببت الانتظار.

- هل أستطيع؟ شكراً لك، سأفعل.

- ألن تجلس؟

دون أن تراها، استطاعت سيرينا أن تتصور إشارة مساعدتها إلى الأريكة.. عندما اختفى انعكاسه عن المرآة انسحبت سيرينا بسرعة إلى زاوية معتمة عند أسفل السلم.. رأته من هناك عندما جلس، وبدأ قلبها يخفق بعنف حتى أنها وضعت كلتا يديها على صدرها وكأنما هي تخنق الصوت الذي قد يلفت انتباهه.

لاحظت أنه لم يتغير كثيراً بالمقارنة معها منذ آخر مرة رأته فيها. ربما الخطوط الطويلة على خديه أكثر عمقاً بقليل مما كانت عليه.. لكن جسمه لا يزال نحيلاً رشيقاً وفكاه حادان مخيفان.

سمعت مارسي تسأله: هل أنت واثق تماماً أن هذا هو المحل الصحيح؟

- أنا متأكد.. قد لا تعرفينها بالاسم.. لكن أعطتني صديقة لي الانطباع بأنها واحدة من زبائنكم المتحمسات.

لم يخفف الزمن من جاذبيته ولا اهتمامه بالجنس الآخر.. مارسي شابة جذابة وابتسامته كانت اعترافاً بهذا الواقع..

تابع: أفهم أنك لست مالكة هذه المؤسسة؟

- أوه.. لا.. أنا أعمل هنا.

- هل هناك فعلاً سنيورة أو سنيورينا ڤيرونزي أم أن الاسم للواجهة فقط؟

كانت لهجته لهجة رجل يجري حديثاً خطر بباله مع فتاة أعجبته..

www.elromancia.com

لكن ومع أن مارسي يعتمد عليها كي تكون لطيفة مع الرجال المرافقين للزبونات إلا أنها كانت ترسم الخط الفاصل بينها وبين العبث معهم.. ورغم شخصيته القوية، كان في نظرها لا يقارن مع ضابط البوليس الشاب الذي وضع خاتم الخطوبة في يدها، والذي تخطط للزواج منه قبل نهاية السنة.

لو كان الرجل الجالس على الأريكة مجهولاً لسيرينا، لكانت تسلت بالتوبيخ الخفيف الذي يصدر عن مساعدتها وهي تجيب:

ـ كل ما تراه هنا مصمم على يد الآنسة فيرونزي سيدي. إنها في مشغلها فوق الآن.

ـ آه.. لكن هل هي المخلوق الرائع الذي يقترحه الاسم؟ أم أنها امرأة متشنجة في أواخر الخمسينات ومولودة في الديغايت في إيطاليا؟

تنفست سيرينا بعمق وتقدمت ووقفت تحت قنطرة الباب، قائلة بصوتها المنخفض الواضح:

ـ ربما يمكنك أن تحكم بنفسك؟

وقف ببطء شديد، ولمعان المزاح في عينيه تحل مكانه نظرة عدم تصديق:

ـ سيرينا؟

ـ أنت على حق.. لا وجود لشخصية اسمها بلانكا فيرونزي. لكن اسمي الخاص ليس شهيراً.. ولدي.. أسباب أخرى لإبقاء اسمي لنفسي.

أذهلها تملكها لرباطة جأشها.. الآن وقد تلاشت الصدمة الأولى لرؤيته أحست بتماسك غريب، وأكملت بخفة:

ـ يا له من مكان غير معقول نلتقي فيه بعد هذه المدة الطويلة؟

ـ ليس غريباً بقدر المكان الأول الذي التقينا فيه أول مرة.

حاكت لهجته الهادئة لهجتها الآن بعد الصوت الأجش الذي تلفظ فيه باسمها.. لكن عينيه لم تكونا باردتين.. بل كانتا ملتهبتين بغضب قوي متوحش.

وقفا بصمت ينظران إلى بعضهما مثلهما مثل مارسي المصعوقة

المتفرجة، وتوهمت سيرينا أن السنوات بينهما تلاشت، وأنها عادت إلى حقيقة نفسها مجدداً في ذلك المكان البعيد الذي لم تنسه أبداً.. وفي يوم ستذكره حتى الممات..

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ قاسي القلب

ـ هاي.. ! أنت.. أيها الصبي! تعال إلى هنا!

استيقظت سيرينا من حلم يقظتها على صوت سلطوي أجش، فتحركت ونظرت حولها لترى من يتكلم وإلى من يوجه كلامه.

كان رصيف الميناء مهجوراً في مثل هذه الساعة.. في فترة العصر من النهار تكون حرارة الشمس شديدة والرطوبة قاتلة.. ومعظم أهل البلد كانوا ينامون في مثل هذا الوقت، وأحياناً كانت سيرينا تنام أيضاً. لكن والدها باولو سهر كثيراً في الليل في «الكانتينا» ولا يزال نائماً.. ولأن مالهما قليل كانا يتشاركان أرخص غرفة في فندق البلدة الوحيد.. وقد دفعها إلى الخارج صوت شخيره الصاخب نحو الرصيف الذي يشكل جانباً من الساحة.

بينما كانت تنشر قميصها القطني الأزرق المستهلك الذي يشكل مع القميص الذي ترتديه، وبنطلونين جينز، وزوج من الأحذية الرخيص، محتويات خزانة ملابسها، لاحظت مركباً جديداً بين نصف دزينة من المراكب الراسية على الرصيف.. لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك أثر للحياة على سطح المركب البالغ أربعين متراً طولاً والذي توقف هناك خلال الليل.

في هذا الوقت رأت رجلاً واقفاً على السطح.. عندما نظرت إليه أشار لها بإشارة آمرة كلهجة صوته تماماً.

التقت سيرينا بعدد كبير من مختلف أنواع الرجال في حياتها القصيرة غير الآمنة.. وتعلمت أن لا تثق بأحد منهم حتى والدها الذي لم تكن قادرة

أبداً على الاعتماد عليه بعدم صرف كل أمواله التي يكتسبها على إحدى نزواته الموقتة.

لم يكن سهلاً تصنيف الرجل الذي استدعاها إذ كان طويل القامة وعريض المنكبين كبنية «غرنغو» وهو اسم مستخدم في جنوبي أميركا للدلالة على رجل من أميركا الشمالية أو شخص ذي شعر ذهبي أو ذي مظهر أجنبي.

كان من الصعب جداً التأكد من شخصيته على أساس بضع كلمات وجهها إليها، خاصة وأنها نعسة.. لكنها عرفت أن الإسبانية ليست لغته الأم.. وأيضاً لم تكن لغتها لكنها تعلمتها وهي طفلة، ويمكن الظن بها كخلاسية.. يظنها العديد من الناس ابن باولو الطبيعي من امرأة هندية حمراء.. لأنها رغم عينيها الخضراوين، وشعرها البني اللماع كلون الموهوغوني خاصة عندما يكون نظيفاً، فهناك شيء في خديها المرتفعين وعينيها المتجهتين إلى الأعلى، يوحي بتلك اللمحة للدم الهندي فيها، لكن في الواقع أن أمها كانت إيطالية وسيرينا ورثت عنها اسمها، لكنها لا تذكرها أبداً.

بينما كانت تتقدم باتجاه الغريب لم يكن في شكلها ما يوحي أنها من جانب أمها كانت الوريثة الشرعية لأقدم عائلات إيطاليا.

قالت بخشونة مصطنعة تحاول إبقاء صوتها خشناً كالرجال:

ـ ماذا تريد؟

لحسن الحظ كان لصوتها نبرة منخفضة طبيعية.. حتى الآن لم يلاحظ أحد أن هذا الابن الأشعث الشعر ابن الفنان هو في الواقع ابنته لا ابنه. إلى أي مدى يمكن لها ولأبيها الاستمرار في الخداع، يعتمد إلى أي مدى تستطيع إبقاء جسمها نحيلاً وصبيانياً.. ربما لأنهما عاشا لعدة سنوات على حمية طعام قصرية، وصلت إلى مرحلة النضوج متأخرة جداً عما هو معتاد بين الفتيات اللاتينيات السريعات البلوغ، حيث تجولا في البلدان بطريقتهما البدوية الراحلة.. حتى الآن وفي سن تكون فيه خلاسية حقيقية قد أنجبت طفلين على الأقل يتعلقان بتنورتها، كان صدر سيرينا لا يزال صغيراً بحيث لا يمكن ملاحظته تحت القميص الواسع وكانت أوراكها

أوراك صبي.

عندما اقتربت رمى الرجل قطعة مال معدنية في الهواء، ثم التقطها وقال:

ـ أتريد أن تكسب هذه يا ولد؟

ـ وماذا عليّ أن أفعل سنيور؟

كانت تعلم أن تنكرها كان يحميها من الكثير من الرجال، إلا أنه لا يجعلها آمنة منهم كلهم.. صحيح أن هذا الرجل لا يبدو شريراً، لكن من الأفضل أن تبقى حذرة من أي شخص إلى أن تعرف شيئاً عنه.

قال: لقد فقدت كل طاقم المركب.. وأحتاج لمن يقوم ببعض الخدمات لي.. ليس فوراً.. بل فيما بعد، عندما تفتح المحلات أبوابها.

استدارت عيناه الرماديتان عنها ونظرتا إلى الواجهة البحرية بانتقاد:

ـ إن نزلت بنفسي إلى الشاطىء فقد أعود وأجد أنني فقدت أيضاً نصف تجهيزات المركب.

ـ أجل.. فهناك الكثير من اللصوص هنا.

تمتم الرجل، ينظر إليها ساخراً:

ـ بما فيهم أنت.. ولن أعجب لهذا.

تكلم هذه المرة بالإنكليزية، وفاجأته بالرد:

ـ لا.. أنا لا أسرق.. أولم أفعل بعد.

رفع حاجباً جميل الشكل بسواد شعره: ليس بعد؟

هزت كتفيها:

ـ عندما يرى من لا يملك شيئاً أن الآخرين لديهم أكثر مما يحتاجون إليه، فمن الطبيعي أن يتملكه الإغراء بأن يعدّل التوازن قليلاً.. وقد أسرق إن كنت جائعاً.. وقد تفعل أنت هذا سنيور.

حتى عندما قالت هذا ندمت لأنها تركته يعرف أنها تتقن لغته وبهذا قد تثير فضوله.

ومما قد يزيده استغراباً طلاقتها بالإنكليزية وواقع أنها تتكلمها بلكنة ارستقراطية تتعارض تماماً مع لغتها الإسبانية غير المثقفة ومظهرها الوضيع من الرأس حتى القدم. لكن لم يكن لديها فكرة أن إنكليزيتها كانت غير

عادية.

قال موافقاً:

ـ ربما أفعل.. لا تبدو عليك التغذية الجيدة، هل أحضر لك ما تأكله؟

عادت للتكلم بالإسبانية:

ـ إذا كنت تستطيع الاستغناء عنه سنيور.

قال الرجل بالإنكليزية:

ـ اصعد إلى المركب.. لكن دون أن تنزل إلى الأسفل.. لدي ما يكفي من المشاكل في الوقت الحاضر.. وأنت تبدو بحاجة إلى غسلٍ جيد إضافة إلى شهر من الوجبات المكتملة أيها الصبي.

رأت أن ظهره العاري قوي العضلات مثل صدره وهو يختفي بين سطوح المراكب وبشرته البنية تلمع بالعرق المتفصد بسبب الرطوبة..

مع أن الرجل الإنكليزي لمّح بأنها قد تكون موبوءة ومليئة بالحشرات غير المرغوبة، إلا أنها معجزة كيف كانت تتجنب الكثير من الأمراض المعدية التي تكثر في المعيشة الفقيرة في المناطق الاستوائية.

إن أسوأ ما عانت منه كان الطفح الجلدي، لأنها في كل ليلة بينما كان والدها يتسكع بين الحانات، كانت تغسل نفسها من رأسها حتى أخمص قدميها، وكانت ترغب بغسل شعرها أكثر لكنها لم تكن تجرؤ على إبقائه نظيفاً.. كانت تمشطه ليلاً ولم تستطع أن تفعل ذلك صباحاً، ومع أنها كانت تكره حالة أظافرها المكسورة المتسخة، إلا أن هذا أفضل من جذب الانتباه.. في معظم الأماكن التي زاراها، كانت النساء الفقيرات مستعبدات لحمل الأطفال فقط في مواخير عفنة.. ولم يكن في نفس سيرينا أي وهم فيما يمكن أن يحدث لها إن عرف أحد بأنها فتاة.

عاد الإنكليزي إلى السطح وهو يحمل في يد سندويشاً وفي الأخرى علبة مرطبات. لاحظت أن أظافره نظيفة ومعتنى بها جيداً، ولأول مرة تشعر بنفسها خجلى من أظافرها.. لو أن باولو يدّخر ما يكفي من مال لشراء تذكرة سفر لهما إلى مكان أكثر تمدناً لتمكنت من إطالة أظافرها مثل بقية الفتيات.

www.elromancia.com

عندما قضمت أول قضمة من السندويش المكوّن من رغيف محمص القشرة، والمليء باللحم والطماطم نسيت كل شيء عدا هذه الوجبة الطازجة.

سألها:

ـ ماذا تفعل هنا.. ؟ أنت بالتأكيد لست من مواليد هذه البلاد؟

كان فم سبرينا ممتلئاً بالطعام فلم تستطع الإجابة فوراً.. ومع أنها غير واثقة أنه أهل للثقة إلا أنها أحست أنه من غير الضروري التلاعب مع هذا الرجل.. قالت متمسكة باللغة الإسبانية:

ـ لا.. فنحن نقيم مؤقتاً هنا.

كانت هناك فكرة تدور في رأسها.. ربما يستطيع أن يأخذهما كعاملين بما أنه فقد طاقم مركبه.. ولا يهم إلى أين فأي مكان سيكون أفضل من هذا المكان الرديء.

وسألها: من «نحن»؟

ـ أنا ووالدي.

ـ ما اسمك؟

قالت دون تردد:

ـ جينو.. سنيور.

بدا هذا الاسم لها الخيار المناسب الذي يعطي الانطباع أنها الابن «الخلاسي» لأبيها.. وأكملت:

ـ والدي إنكليزي.. فنان رسام.. وطيب جداً.

ـ وأمك؟

هزت كتفيها: ماتت منذ زمن بعيد.. لا أذكرها سنيور.

ـ قد يكون لوالدك موهبة جيدة في الرسم، لكنه لا يبدو ناجحاً كثيراً على المستوى التجاري بالنظر إلى الطريقة التي يغذيك فيها ويلبسك.

ارتفع ذقنها العنيد الصارم:

ـ بعض الأحيان أفضل الفنانين لا يشتهرون في حياتهم. والأمكنة التي رسم فيها والدي أفضل لوحاته ليست الأمكنة الأنسب لبيع اللوحات.. من يستطيع هنا تحمل ثمن مثل هذه؟

ـ ربما أستطيع أنا.. إذا شاركتك رأيك في موهبته.. ما اسم والدك؟

ـ باولو فرايزر.. وما اسمك سنيور؟

ـ فيذرستون.. جيسكار فيذرستون.

ـ هل ترغب بأن آتيك ببعض اللوحات لتراها بعد أن أنهي لك أعمالك؟

ـ لماذا لا أراها في منزلكم؟ أين تعيشان؟ خارج البلدة؟

ـ خارج البلدة لا يوجد سوى الغابات، لذا نحن نقيم في الفندق الوحيد الموجود فيها، والنور فيه غير جيد وخاصة في غرفتنا. وأنت بحاجة إلى نور قوي لتتمكن من رؤية اللوحات بوضوح.

ـ حسن جداً، قل لوالدك أن يقابلني في مقهى الفندق في الساعة السادسة.. ربما إن أُعجبت به فقد أدعوه إلى العشاء.

ـ وأنا أيضاً؟

لامست ابتسامة خفيفة فمه الصارم:

ـ ألا زلت جائعاً؟ سنرى. ربما أجل، وربما لا.. يبدو لي أنك لست حقيراً أو قذراً كما تبدو لأول مرة، وذلك بعدما تفحصتك عن قرب.

أمسك أذنها بينما كان يتكلم ليتفحصها دون رقة.. وقال معلقاً:

ـ أذنك نظيفة.. أمر غريب! في مثل سنك أكثر الأولاد لهم آذان متسخة جداً. كم عمرك؟ أربعة عشر أم خمسة عشر؟

عرفت أنه حكم على سنها لخلو المنطقة المحيطة بشفتيها من الشعر الرقيق ومظهرها الأنثوي الذي يكتسبه بعض الصبية في مثل هذه المرحلة قبل أن تعرض أكتافهم وتقسو عضلاتهم.

تجاهلت سؤاله قائلة:

ـ والدي رجل نظيف جداً.. ولا يجب أن تحكم عليه عبر مقارنته بي.. إنه مثلك.. أي تودو ان سنيور..

واستخدمت التعبير الاسباني الذي يعني أنه سيد مهذب حقيقي.

لكن رد فعل جيسكار فيذرستون كان صفعة قوية لها جعلت عينيها تدمعان.

ـ أنت لا تعرف شيئاً عني يا فتى.. فاقلع عن هذا الهراء المداهن إذا

www.elromancia.com

أردت أن لا أصلم أذنيك.. وتكلم الإنكليزية.. هل تعرف القراءة؟

هزت رأسها وهي ترفرف بعينيها لترجع الدمع عنهما ساخطة من خشونته، لكنها كانت تعرف أنها دفعته لهذا بمعاملته كواحد من محدثي النعمة الذين تلتقيهم في مقاهي المدن وهم يرتدون بذلات منتفخة تناسب أصواتهم المنتفخة ينظرون لكل من يظنونه أدنى منهم مستوى بازدراء.. هذا الرجل ليس منهم ورأت أنها ستضطر لأن تكون حذرة بأن لا تكدره مرة أخرى وإلا سيفسد هذا أملها في الخلاص.

أعطاها لائحة بخمس حاجيات هو بحاجة إليها لتعزيز مخزن مؤنته: اقرأ هذا.

كانت كتابته واضحة ومرتبة. إنها يد رجل مثقف.. قرأت اللائحة فهز رأسه وأعطاها المال.. وقال لها محذراً وممسكاً بقفل حزامه المكسيكي المعدني:

ـ لا تظني أن لا حاجة بك للعودة.. لأنك إن لم تعد فسأجدك وسأذيقك طعم هذا الحزام.

لمعت عيناها الخضراوان انزعاجاً:

ـ لقد قلت لك وأعيدها أنا لست لصاً!

ـ أرجو هذا لمصلحتك.. هيا اذهب.

أسرعت إلى غرفتهما لتكلم أباها قبل أن تهتم باللائحة.. فوجدته صاحياً لكنه كان يعاني من الصداع. هو لم يصل بعد حتى سن الخمسين لكنه يبدو وكأنه يقارب الستين.

سيرينا تعلم أنه عندما يكون في مثل هذه الحالة من الصداع لا تستطيع التكلم معه إلا بعد أن تداوي صداعه. أعطته قرصين من الأسبرين وفنجان قهوة، وما إن شعرت أنه بدا قادراً على الاستماع حتى قالت:

ـ أبي.. يجب أن تصغي إلي. كنت أتحدث إلى رجل إنكليزي.. وقد يشتري إحدى لوحاتك.. وقد.. إذا لعبنا أوراقنا جيداً.. يوصلنا إلى مكان آخر من النهر. بريدك أن تقابله في مقهى الفندق في الساعة السادسة، لذا أرجوك حاول أن تتماسك وأن تكون لطيفاً معه. أمامك ساعتين لتستعد فيهما.. إنها فرصتنا الوحيدة أبي.. فرصتنا الوحيدة.

اخترقت لهجتها اليائسة ألم رأسه فنظر إليها محمرّ العينين متألماً، لم يبقَ منه إلا بقايا رجل جميل الطلعة كما تذكره منذ أعوام مضت.

ـ ماذا تعنين بفرصتنا الوحيدة؟ بإمكاننا الرحيل من هنا متى أردنا.

ـ أوه أبي.. أنت تعرف أننا لا نستطيع.. ليس دون مال. إنك تصرف كل أموالك على السكر ولعب القمار.

ـ لا تصرّي.. قد نكون بحاجة للمال في الوقت الحاضر لكن هذا أمر مؤقت.. كان لدينا بعض الأوقات الجيدة، ألا تذكرين.. هناك آباء لو كانوا في مثل موقفي لرموك في ميتم. ما رأيك بهذا يا فتاة؟

كان يجيبها دوماً بهذه الإجابة عندما تزجره وتعرف أن هذا صحيح نوعاً ما.. لأن أكثر الرجال كانوا سيرمون طفلة مثلها في مكان ما.. أما لماذا اختار باولو أن يبقيها معه، فهو أمر غامض لم تكتشفه أبداً.. ربما لأنه لا زال يرافقه الإحساس بالمسؤولية حتى في هذه الأيام.

وصحيح كذلك أن حياتها معه لم تكن سيئة كثيراً.. فقد عاشر بعض النساء الجميلات والمرحات، اللواتي كن لطيفات كثيراً مع الصغيرة سيرينا.. لكن خلال فترة مراهقتها بدأ هبوطه وأخذ ببطء يدمر كل حبها الطبيعي، ويصبح عبئاً ثقيلاً على كتفيها.. ردت عليه بنفاد صبر مفاجيء:

ـ إذا أردت البقاء.. فابقَ.. أنا أريد الرحيل مع السيد فيذرستون.. يجب أن أغادر هذا المكان أبي.. يجب! لا أستطيع الاستمرار في العيش هكذا.. دائمة القلق.. ودائمة الخوف!

قال باولو متوتراً:

ـ أوه.. حسن جداً.. سأنزل لأتحدث مع الرجل.. وسأطلب منه حملنا معه إلى الساحل.. ماذا يفعل هنا في هذا المكان البعيد من النهر؟ تجارة؟

ـ لا أعرف.. ولا أظن هذا. يجب أن أخرج الآن.. فقد طلب مني شراء بعض المؤن له.. لن أغيب أكثر من نصف ساعة ثم أعود لمساعدتك.

تبدأ مساعدته بحلق ذقنه بموس قديم يقطع الرقاب، يداه ترتجفان باستمرار وذلك لا يخوله الإمساك به بثبات لذا تعلمت هي كيف تستخدم

الموس وأصبحت خبرتها مثل خبرة الحلاق.

لم يكن فقرها بالملابس بمماثل ملابسه.. بذلاته الخفيفة الاستوائية الطراز وقمصانه الحريرية شهدت أياماً أفضل من هذه وسيرينا كانت دائماً سريعة في التعامل مع اللطخات والتصليحات فيها، كي يتمكن والدها من تقديم انطباع مناسب أمام الناس في المناسبات.

كان جيسكار فيذرستون يجلس إلى طاولة في المقهى الذي يمثل كذلك غرفة الطعام، عندما نزلا.. وكان قد اختار طاولة قريبة من النافذة تخوله رؤية مركبه طيلة فترة جلوسه. بينما وقف جيسكار لمصافحة والدها، أخذت سيرينا تدعو الله أن يُعجب الرجلان ببعضهما.

أحضرت معها لوحتين، إحداهما صورة لامرأة عجوز والأخرى منظر طبيعي للنهر أسندتهما إلى كرسيها دون أن تشير إليهما إلى أن طلب بنفسه أن يراهما.. تأملته وهو يدرسهما دون أن يبدو على وجهه أية تعابير، عندها لم تستطع سوى التساؤل عن مدى خبرته بالرسم الجيد والسيء.. وما إذا كان عمل والدها جيداً بقدر ما تظنه دوماً.

أخيراً قال لباولو: كم تطلب ثمناً لهذه؟

ـ ثمن بخس، يا عزيزي.. ثمن بخس.

وسمى له سعراً أعلى بكثير مما كانت ستطلب هي. وكان رد الشاب الجاف:

ـ في معرض في «كولناي» قد تحصل على مثل هذا السعر.. لكن هنا لسنا في «بوند ستريت» فرايزر.. سأدفع لك ثلث السعر الذي طلبته.. اقبل أو أرفض.

فتح باولو فمه ليحاول، لكن سيرينا تدخلت بسرعة:

ـ لقد حصلت على الصفقة سيد فيذرستون، لا نستطيع أبداً أن نرفض لك عرضاً.

قال وهو ينظر إلى ساقي المقهى المراوغ العينين:

ـ إن جلبتها إلى المركب فسأدفع لك هناك.. فأنا لا أحمل مالاً كثيراً في أمكنة كهذه.

تبعاه إلى متن المركب الشراعي ذو الصاري الواحد، وعندما رأت

سيرينا الصالون المريح بجدرانه الخشبية، والأرائك المكسوة بقماش كتاني بلون التبغ والستائر المماثلة، وطاولة الطعام البلاستيكية الشفافة السطح، لم تستطع منع شهقة ابتهاج.

بدا كل شيء نظيفاً ومرتباً ومختلفاً تماماً عن مكان سكنهما بجدرانه المتسخة ودهانها المقشّر.

في وقت قصير جداً كانت الطاولة محضرة بوجبة طعام حضرها مضيفهما على أنها «من حواضر البيت».. لكنها بدت لسيرينا مأدبة كبيرة.. لقد مرت سنوات منذ أن أكلت طعاماً جيداً، واستغربت أن تكون يخنة الخضار والدجاج التي ترافقها قصعة أرز قد حضرها رجل.. فوالدها لا يعرف شيئاً عن مثل هذا الفن وهو لا يقدر مثل هذه الوجبات حق قدرها.. مما اضطرها إلى التهام معظم حصته وبسرعة بعد أن خرج جيسكار إلى المطبخ ليأتي بالمزيد من المرطبات وهي تأمل أن لا يلاحظ بأن والدها لم يأكل سوى لقمتين أو ثلاثة.

عندما أوشكا على إنهاء طعامهما بدأت تضرب ساقها بساق والدها لتذكره بأن يفتح موضوع العمل على المركب كوسيلة للوصول إلى الساحل الذي يبعد مئة ميل نزولاً مع مجرى النهر.. لكنه اختار أن يتجاهل إشاراتها.. عندما قررت أن تخوض الموضوع بنفسها دفع جيسكار فيذرستون لوالدها ثمن اللوحتين، ثم اقترح باولو أن يلعبا بالورق.. فصاحت محتجة:

ـ لا.. أبي.. لا!

أجابه جيسكار قائلاً بنعومة وناظراً إلى وجهها المتلهف للرفض:

ـ بكل سرور.. اذهب إلى النوم جينو إن كنت متعباً.

ـ لا.. لست متعباً.

أنذرها إحساس بأن المال الذي وضعه والدها في جيبه منذ قليل لن يطول مقامه قبل أن يعود إلى جيب القبطان جيسكار.

مع أن والدها طرح عدداً من التساؤلات غير المباشرة عما أتى بالرجل إلى أعلى النهر، وماذا يعمل لكسب معيشته، إلا أنهما حتى الآن لا يعرفان سوى القليل عنه.. ربما هو مقامر محترف، وفي هذه الحالة لن يكون

لباولو أي فرصة بالنجاح أمامه.. فمع أنه ليس باللاعب المسكين إلا أن الحظ لم يرافقه في أية مرة لعب فيها، ودائماً كان الخاسر في النهاية.

على أي حال عندما اقترح والدها مبلغ الرهان الذي سيلعبون على أساسه أدهشها الرجل بالقول ببرود أعصاب:

ـ أنا لا ألعب لأجل المال فرايزر، وأنا مندهش لأنك تلعب مع الغرباء.. فهذه القارة فيها ما يكفي من الشخصيات الشريرة، ولطالما شاهدت مشاجرات مأساوية حول لعب الورق.

خلط الورق بنفس الدقة التي طرحه فيها ثم نظف الطاولة.. وتساءلت كم يبلغ عمر جيسكار، وصلت إلى نتيجة أنه صعب الحكم كم هو عمره. حركته كحركة الشباب الخفيفة، وشعره الأسود كثيف ومجعد مع ذلك وجهه الأسمر يبدو أنه لرجل رأى الكثير الكثير من الدنيا. وجهه مخطط بخطوط عميقة في خديه وحول عينيه أيضاً تكثر الخطوط الصغيرة.. ولم يفت سيرينا أن تلاحظ وهم يقطعون البلازا إلى الميناء أن فتاة خلاسية على جانب كبير من الجمال نظرت إليه داعية..

سأل: هل أوزع لك الورق أيضاً جينو؟

هزت رأسها: أنا لا ألعب.. هل لي أن أستعرض كتبك؟

ـ بكل سرور. مع أنني أخشى أن لا أستطيع إعارتك أي منها.. فأنا سأغادر في الغد.

قال والدها:

ـ أخبرني جينو بأنك فقدت بحارتك.. إنه صبي يمكن الاستفادة منه.. ربما يهمك أن تستفيد منه لفترة قصيرة، فنحن كنا نفكر بالسفر أيضاً.. لكن معظم المراكب العاملة على هذا النهر لا تهتم براحة المسافرين.. كل ما تقدمه هو فسحة على السطح بين المواشي.

قطع جيسكار فيذرستون الورق ونظر إلى الورقة التي قطعها للحظات قبل أن يجيب:

ـ أنا آسف. لا أستطيع إسداء هذه الخدمة لك.. فأنا لا أحمل أبداً الركاب معي.. وبالنسبة لنقص البحارة، أستطيع السيطرة على «الراين» وحدي في أسوأ ظروف الطقس.

ـ أوه.. هيا الآن يا رجل.. أنت بالتأكيد لن ترفض مساعدة مواطنيك في ظروف صعبة؟ لن نزعجك.. أؤكد لك.

قال: أنت تزعجني الآن.

مد يده لينتزع السيكارة من بين أصابع باولو، ثم فتح الستارة خلفه ورمى السيكار الصغير إلى النهر.. وقال شارحاً بقسوة:

ـ أنا لا أدخن.

رد باولو بلهجة اعتذار متذمرة:

ـ أنا آسف.. لماذا لم تقل هذا؟

ـ ولماذا لم تسأل قبل أن تشعلها؟ فهذا هو الحال عادة بين من هم «تودو آن سنيور» كما وصفك ابنك قبل الآن.

جعلت سخريته سيرينا تحمر خجلاً وتاقت لأن تقفز وتقول: أبي.. أظن أن علينا المغادرة الآن!

لكن رغم عدم اعتراضها على السفر مع الماعز والدجاج وربما القمل مثلها مثل مرافقيها، إلا أنه لا يوجد ضمانة بأن المال الذي معهما سيبقى كافياً حتى يصل المركب القادم، وذلك لأنه سيُصرف من قبل والدها قبل ذلك الوقت.

كانت قلادتها مرهونة لدى صاحب الفندق، وهي الإرث الوحيد من أمها ولا يمكن استردادها إلا بدفع معظم المال الذي دفعه جيسكار فيذرستون ثمناً للوحتين.

مهما كلفها الأمر من الإذلال لها ولوالدها، فلسوف تذل نفسها طوعاً إذا كان هذا سيعيد إليها العلبة الذهبية الصغيرة المعلقة بشريط أسود باهت، والتي تحتوي على صورة مصغرة محفورة على العاج لجدتها الإيطالية يوم كانت فتاة شابة.

أما أن باولو لم يلحظ السخرية أو أنه اختار أن يتجاهلها.

ـ يجب أن تسامحني أيها الرجل العزيز.. العيش بين كل هذه الحثالة من الرعاع يجعل المرء ينجرف إلى تقليد طرقهم السيئة. لا بد أنك تفهم.. لا ينفع المرء أن يدعهم يلاحظون أنه معتاد على الرفاهية.. فهذا يدفعهم إلى الارتياب والعداء.. أجدهم رائعين كرسام أما كرجل فأنا لا

أثق بهم أبداً.. سيقطعون رقبتي ذبحاً إن ظنوا للحظة أن هناك إفادة مما يفعلون.

ـ مع ذلك لا تجد من الضروري أن ترتدي ملابس على طريقة ابنك؟

قالت سيرينا بسرعة: أنا لا زلت أنمو.. ولهذا تضيق عليّ ثيابي.. ووالدي يرتدي أفضل بذلاته كإشارة احترام لك سنيور.

نظر نظرة متفرسة إلى مكان خيط حاكته بيدها:

ـ هذا ما أراه.. يبدو أنك تتمتع بخدمات خياطة من الدرجة الأولى.. أنا لست سيئاً في إصلاح الثياب كمعظم البحارة، لكنني لا أستطيع منافسة خياطة كهذه.. تبدو وكأنها خيطت بيد فئران «غلوسستر» المتعاونة.. أم أنك لا تعرف هذه القصة؟

ـ لا أعرفها.. لمن هي؟

ـ إنها لامرأة تدعى «ميتركس بوتر» قصصها معروفة لنصف أطفال انكلترا.

ردت وهي تتوقع أن ترى لمعان السخرية ذاته الذي رأته في عينيه وهو ينظر إلى أبيها: أنا فقط نصف إنكليزية.

من الطبيعي أن يعتقد أن نصفها الآخر هو من الهنود الحمر لأميركا الجنوبية، وكانت تألف منذ زمن طويل اشمئزاز العرق الصافي من أي دم مختلط.. لكن لم يظهر عليه التفكير بما أوحته له، مع أن النظرة التي رمقها بها جعلتها تحني رأسها فوق الكتاب الذي تناولته عن الرف.

كانت يومها صغيرة.. وفي نظر كل الرجال المحترمين لا زالت بعدُ طفلة سعيدة تخيط للعبتها.. لذا ربما لو عرف أنها فتاة.. سيأخذهم معه.. بينما كانت تفكر بأن تفضي إليه بسرها تذكرت حديثاً دار بين كاهن فرنسي ووالدها.. الكاهن أمضى حياة طويلة في مختلف أجزاء أميركا الجنوبية، وعمل في أوحال ضواحي المدن أمثال ضواحي ريودوجانيرو، ونجا من أكثر من ثورة.. ولقد حذر والدها الإنكليزي، أن أميركا الجنوبية من حقها حمل اسم القارة السوداء مثلها مثل أفريقيا.. وتحدث عن عذراوات وفتيات صغيرات يختطفن ليبعن عبدات.

لم تفهم يومها كل ما قاله لكن بذرة الرعب انغرست عميقاً في

نفسها.. وهو خوف ازداد تجذراً عندما أبعد والدها في اليوم التالي كل لعبها وقص شعرها الكثيف الذي يبلغ وسطها، وقال لها: «من اليوم وصاعداً ستتظاهرين بأنكِ صبي».

منذ ذلك الوقت تزايد ارتيابها بكل الرجال، ليس لأن التخفي مع مرور الزمن أصبح أكثر صعوبة بل لأن قدرة والدها على حمايتها أخذت تزول.. وحتى وصول جيسكار فيذرستون لم تكن تشعر سوى بالارتباك عندما يتفرس فيها شخص من الجنس الآخر بفضول زائد.

قد يكون أحد المجرمين الذين يسعون إلى اللجوء في أميركا الجنوبية.. وقد يكون أكثر الرجال شراً. ما إن يكتشف سرها لن يتوانى عن قتل أبيها واغتصابها ثم يتركها لتختار بين أن تغرق نفسها في النهر أو تنضم إلى الفتيات الفاسقات في البلدة.

جعلتها أفكارها تجفل رعباً وتتوق بشوق لأن تكون جزءاً من العالم حيث تكبر الفتيات بأمان وطمأنينة في بيوت مريحة وأبوين عاديين ومحترمين.

إنه عالم تلمحه من بعيد لكنها لم تعرفه أبداً.. حتى في أيامهم المزدهرة نسبياً في المكسيك وأميركا الوسطى، لم يقيما طويلاً في مكان واحد ولم تدم علاقة باولو بإحدى النساء أكثر من ستة أشهر. الآن ودون أن تعي أن ما تتوق إليه الكثيرات من أترابها هو الحرية، كانت هي تتشوق للأمان.

لعب الرجلان الورق لساعة، وكانت سعيدة لأنه لم يقبل الرهان بالمال لأنه كالعادة كان والدها هو الخاسر.

عادة كان باولو يطيل السهر دون أن يظهر عليه التعب خاصة حول طاولة القمار.. الليلة ما إن تركه جيسكار لصنع المزيد من القهوة حتى غط في النوم فجأة.. ورغم كل محاولاتها لم تستطع إيقاظه.

عندما عاد جيسكار قالت بقلق:

ـ كان هذا اليوم متعباً وطويلاً بالنسبة لأبي ولم يكن بصحة جيدة مؤخراً، عادة يخلد إلى النوم مبكراً.. أريده أن يرى طبيباً، لكن لا يوجد طبيب هنا.. لذا أرجوك.. أرجوك سيد فيذرستون، ألا يمكنك أن تمنحنا

فرصة الانتقال معك ولو إلى الساحل فقط؟

رد جيسكار: سآخذك إلى الساحل.. لكن ليس هو.

ردت متوترة: ماذا.. ماذا تعني؟

ـ أنا أشعر بالأسف عليك جينو.. الحياة كانت قاسية معك.. أنا مستعد لإيصالك إلى أقرب قنصلية بريطانية لكن والدك.. لا! أنا لن أورط نفسي مع مقامر سكير.

ـ لكنني لا أستطيع أن أتركه.

ـ ولما لا؟ لم يفعل لك شيئاً عدا أنه جاء بك إلى الحياة، وأي غبي يمكنه أن يفعل هذا. إبقَ معه وستغرق.. تعال معي وستبدأ بالحياة من جديد.

راقبته يصب القهوة.

ـ أنت رجل قاسٍ.. سنيور.. قاس جداً.

هز كتفيه:

ـ أنا واقعي.. «كل مولود من امرأة له بضعة أيام، وجُلُّها مليء بالمشاكل.. لذلك يجب أن يستفيد أكثر ما يمكنه من هذه الأيام القليلة».. أتعرف من كتب هذا الكلام؟

هزت رأسها نفياً: إنه من «العهد القديم» «في التوراة».. إنه جزء من حقك الذي حرمك منه والدك.. فدعه يذهب في طريقه.. واذهب أنت في طريقك.

ـ لا.. لا أستطيع تركه.. لا أستطيع! إنه يحتاج إلي! فكيف أتركه؟

ـ هذا تصرف النساء... المرأة تحب أن يحتاج إليها أحد.. لكن للرجل طرقه الخاصة لشق الحياة.. لقد تجرجرت في أعقابه ما يكفي.. وإن بقيت معه لوقت طويل أبعد من هذا فسيفوتك أوان استدراك السنوات التي خسرتها.. السنوات التي كان مفترضاً أن تكون فيها في المدرسة تمرّن دماغك وتتنافس مع الفتيان الآخرين.

ـ لكن كيف أستطيع العيش دون أب؟ ليس لنا أقارب في انكلترا.. ما من أحد يأويني معه حتى لو كان لدي المال للسفر إلى هناك.

ـ سيدبر لك القنصل هذا.. وما إن تصل إلى هناك حتى تعيلك

الدولة.. إنها تهتم بالكثير من الناس إلى أن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم.. ولن يكون من الصعب الحصول على المساعدة لفتى مثلك.

ـ لكنني لن أتأقلم هناك في انكلترا! فأنا لا أنتمي إليها!

ـ ولا تنتمي إلى هنا.. ومهما أحسست بالوحدة في البداية فلن تكون محروماً معوزاً.. وهذا ما ستكون عليه هنا عندما يموت والدك.

صاحت برعب: أوه.. لا تقل هذا!

ـ لن يغيّر الوقائع عدم قوله.. في مثل هذا الطقس، الإهمال الصحي قاتل.. الرجل الصحيح الجسم وحده يعيش.. وأستطيع القول إن لوالدك سنة باقية على الأكثر.. ثم ستضطر إلى مواجهة الحياة لوحدك، فلماذا لا تواجهها الآن؟ حتى أنه من الممكن أن تدفعه صدمة تركك له كي يتماسك، مع أنني لا أراهن على هذا.

وتكوّر فمه بسخرية وهو ينظر إلى الجسد المتراخي المفتوح الفم الشاخر للفنان النائم.

ـ لا شك أنك بارد الدم كي تقترح أن أتركه هنا ليموت وحده.. هل ستترك.. كنت ستترك والديك في ظروف مماثلة؟

بدت عيناه أكثر برودة، وقال بخشونة:

ـ لن أسمح لأي كان وحتى لو كان قريباً أن يصبح عائقاً في وجهي.. واجب الإنسان الأول هو تجاه نفسه.. أن يعيش حياته الخاصة كاملة، لا أن يضحي بنفسه من أجل شخص آخر.. خاصة إن كان لا يستحق مثل هذه التضحية!

جعلتها فلسفته هذه تشعر بالبرد الشديد.. أحست أنها أمام رجل قوي، تماثل قوته ضعف والدها، لا يشعر بذرة عطف أو إشفاق على من هو أضعف منه.. وبدأت تقول:

ـ لكن بكل تأكيد لو كان المرء يحب شخصاً...

هز كتفيه وقاطعها:

ـ هذا شيء لا أعرف عنه شيئاً.. لكن أن تخدع نفسك بالظن أنك متعلق به، فهذا يبدو لي حماقة كبيرة تماثل حماقة تفسير رجل وامرأة الرغبة «بالحب». إذا كنت لا ترغب في المزيد من القهوة سأساعدك في

إيصاله إلى الفندق.

لكن أباها استيقظ ما إن هزه جيسكار، وكانت حركته متثاقلة، وما كانت سيرينا ستتمكن من إيصاله إلى غرفتهما لوحدها.. بعد إنزاله إلى البر وإسناده عبر الساحة ودفعه فوق الدرجات الثلاثة للسلم جعلتها احتجاجاته تنكمش من الخجل.. عندما وصلوا إلى أول فسحة في السلم مرت من أمام الرجلين وفتحت باب غرفتهما.

بعد رؤيتها للنظافة المريحة على متن القارب الشراعي كرهت أن يرى جيسكار العلبة القذرة بسريريها المتهاويين والمغسلة المكسّرة التي تشكل مطبخهما.

سألها: أيهما سريره؟

ـ ذلك هو.

كانت تراقبه وهو يضع والدها فوق الرفاصات المطقطقة.

تمتمت بخجل: شكراً لك.. وآسف على هذا.

ـ لست مضطراً للاعتذار عنه.. هل تريدني أن أخلع عنه ثيابه؟

هزت رأسها مثقلة بعمق وإذلال أسوأ من أي موقف جربته.. وتراجع جيسكار إلى الباب ثم توقف ليقول:

ـ فكر بالأمر.. بعرضي أن أوصلك إلى الساحل.

قامت بتوسل أخير يائس مع معرفتها سلفاً أن لا جدوى منه:

ـ هناك عدة لوحات أخرى هنا بإمكانك أخذها كلها دون مقابل وبكل ترحاب، لو أنك فقط تغير رأيك.. أرجوك سنيور فيذرستون.. أرجوك.. ألن تشفق علينا؟

ـ أنا أشفق عليك.. أما هو فلا.. فلو أشفقت على كل منخلف فاشل التقيته في الستين المنصرمتين من إبحاري، لغرق «راين» تحت ثقلهم..

عمت مساء.

خرج وأقفل الباب، وسمعته ينزل السلم.. لاحظت أن وقع أقدامه خفيف بالنسبة لرجل طويل مثله.

* * *

٣ ـ الهروب إلى الشمس

كانت ليلة مؤرقة لسيرينا.

مع أن المنطق كان يعترف أن كل ما قاله جيسكار لها صحيح، وهي تتوق من كل قلبها للهرب ليس من المكان وحسب بل من الرجل الذي قتل فيها كل جذوة حب، إلا أن ضميرها لم يستطع تقبل فكرة هجره.

في الوقت نفسه اهتزت شجاعتها خشية أن تجد نفسها هي المهجورة إن تدهورت صحة أبيها.

وفكرت في جيسكار وكيف رفض بعناد اصطحاب أبيها معه، وتساءلت عما وراء ملاحظته الغريبة التي مفادها أن العاطفة البنوية هي شعور غير موجود لديه، كذلك العاطفة التي تكون بين رجل وامرأة. وكان هذا أيضاً أمراً غريباً بالنسبة لسيرينا، لأنها لم تقابل في الحياة ذلك الحب الموصوف في الكتب التي تقع عليها يدها من وقت لآخر.

كان والدها يتكلم وهو في مزاج عاطفي رائق كما لو أن حبه لأمها التجربة الكبرى في حياته، وأن موتها كان الضربة التي لم يستعد بعدها وعيه منها.. لكن لم تستطع ابنته التصديق أن ترمله هو السبب الحقيقي لهروبه من العالم كله.

أما بالنسبة لها فهي كانت مشغولة دوماً بضروريات الحياة كالطعام والشراب، لم يكن لديها الوقت الكافي للتفكير في الشبان مع أنها رأت مرة أو مرتين شاباً لفت نظرها بجماله، لكن تنكرها بزيّ صبي كان يعني أن أي رجل سليم لن ينظر إليها مرتين.

عندما تخلى الليل المظلم والظالم أخيراً عن مكانه للفجر تسللت من

الفراش من تحت الشبكة المانعة للبعوض.. لو كانت الغرفة لها وحدها، لكانت نامت بأي ثياب، لكنها مضطرة الآن لمشاركة والدها الغرفة ومضطرة لارتداء ثوب نوم قطني رخيص مطوي وكأنه «ساري». وكانت الخياطة تعطيها لذة نادرة في استخدام الإبرة.. حين لاحظ جيسكار دقة الخياطة التي أصلحت فيها ثياب أبيها شعر بأن عندها إحباطاً عميقاً.. منذ نعومة أظفارها وهي تشعر بدافع إبداعي لحياكة الثياب بإبرتها.. كان منظر كتل القماش البراق في منصات البيع في السوق يجعل أصابعها تتشوق للقص والخياطة.

لكن بغض النظر عن عدم قدرتها على تحمل ثمن قماش للخياطة فتتكرها أوقف كل نشاط لها. فلا شك أن المرأة التي من المفترض أن تنظف الغرفة ستكتشف بسرعة أي عمل بالابرة، مهما أخفته بدقة.. ثم ما الفائدة من صنع أشياء لن تتمكن من ارتدائها؟

قبل أن تخرج إلى الشرفة، إلى هواء الصباح الباكر، وهو الوقت الوحيد من اليوم الذي يمكن فيه أن تشعر بانتعاش قليل من جو خانق، ارتدت سروالاً وقميصاً.

كانت الساحة والرصيف مهجورين.. فهذا الطقس لا يناسب إلا التكاسل، والسكان المحليون كانوا يغرقون في النوم صباحاً.. كانوا يأوون إلى الفراش في وقت متأخر ويستيقظون في وقت متأخر مع أنه من الممكن إنجاز أعمال جمة في الساعات الأولى من النهار.

شخص وحيد كان نشيطاً في ذلك الصباح وهو قبطان «الرين».. كان ينظف سطح مركبه مستخدماً الممسحة بخبرة ربة منزل، يصفر وهو يعمل.

راقبته سيرينا... كانت قد اتخذت قرارها مؤمنة أنه القرار الصائب لها حتى وإن ظنه قراراً غبياً، إلا أنها لم تستطع كبت تنهيدة ندم... كانت تتصور الروعة لو أنها سافرت معه في هذا الصباح مودعة وإلى الأبد مكاناً لم تحبه يوماً وتتصوره الآن كالسجن المؤبد لها.

أخذت من جيب معطف والدها المال الذي دفعه له جيسكار وذلك قبل أن يستيقظ واحتفظت ببعضه لأجرة سفرهما في مركب التموين، ولفته

في لفافة صغيرة جداً، ودستها في مكان لا يمكن له أو لامرأة التنظيف اكتشافه.. ثم نزلت لتسترد قلادتها من صاحب الفندق.

سألها صاحب الفندق:

ـ هل باع والدك اللوحات للرجل الإنكليزي؟

ـ اثنتان فقط وبثمن بخس.. لكنه يكفي إيجار الغرفة حتى يحين موعد دخول المركب القادم.

ضم يده فوق القلادة التي أخرجها من خزانته:

ـ قد يستغرق هذا بعض الوقت.. ربما من الأفضل أن أحتفظ بهذه كتأمين.. الأفضل أن يكون المرء في الجهة الصحيحة عندما يتعامل مع رجل له عادات أبيك.

قالت بحدة:

ـ لن نترك الفندق ونحن مدينون لك.. أرجوك أعطني القلادة.

ـ زوجتي أحبتها.. وسأشتريها منك.

ـ أنا آسف.. ليست للبيع.

ـ سننظر في هذا عند تسوية حسابكما الأخير.

حاول إعادة القلادة إلى خزنته لكن صوتاً من الخلف قال بخشونة:

ـ أعط الصبي قلادته.

كان صاحب الفندق من النوع المتسلط الذي يهوى أن يجعل حياة من لا يستطيع الدفاع عن نفسه بائسة.. لكن، ومع أن صوته مرتفع وصاخب ومتبجح، إلا أنه تعرّف إلى السلطة في الأمر الناعم الصوت وأصبح مطيعاً مثل طاعة ضحاياه. ومرت القلادة من فوق منصة بيع المرطبات والقهوة دون أدنى نقاش. وكانت تعليمات جيسكار التالية عندما التفتت إليه ممتنة صنيعه:

ـ القهوة لاثنين.. أرجوك.

ـ سي سنيور.. في الحال. أرجوك اتخذ مقعداً لك بينما أحضر القهوة.

مد جيسكار يده نحو القلادة:

ـ هل لي أن أراها؟

وضعتها في راحة يده.. وبالأخرى جذب كرسياً لها.. بعد أن نظر إلى الأحرف الأولى من الاسم المتشابكة معاً على غطاء العلبة فتحها ليتفحص الصورة الصغيرة.

ـ من هذه؟ أمك؟

بإمكان المرء بالعين المجردة ملاحظة التشابه بين الوجه في الصورة ووجهها.

ـ إنها جدتي.

ـ وما جنسيتها؟ إسبانية؟

ـ لا.. إيطالية.

ـ قلت أن لا أقارب لك في انكلترا.. فماذا عن الجهة الأخرى من العائلة؟

ـ لست أدري، فعائلة أمي لم تكن موافقة على زواجها بأبي.. فهربت وتبرؤوا منها بسبب هذا الزواج.

ـ قد ينظرون نظرة مغايرة إلى حفيدهم إن علموا أنه بحاجة إلى مساعدة.

ـ هذا ممكن إن كان أحدهم لا يزال على قيد الحياة.

ـ لا بد أن يكونوا من ذوي المراكز المرموقة ولا شك أن والدك يعلم هذا.. فمثل هذه الصور الصغيرة كانت خاصة بالطبقات الراقية من المجتمع، خاصة منذ معرفة آلات التصوير.

ـ ما زال والدي يشعر بالمرارة والأسى منهم لأنهم رفضوا تقبله.

ـ مهما يكن.. عليك أن تطلب منه إعلامك بالمكان الذي يعيشون فيه. سيكون اسم العائلة على وثيقة زواج أبويك إذا كانت لا تزال معه بين أوراقه.. أتصور أن معك جواز سفر؟ أم لعلك ما زلت مسجلاً في جواز سفره؟

ـ أجل.. ما زلت مسجلاً على جواز سفره.

ـ آه.. هذه عقبة غير متوقعة ولكن يمكن تذليلها بلا ريب.. إذا سجلت رقم جوازه أستطيع أن أعلمك أنه لن يكون صعباً حصولك على أوراق مؤقتة من القنصلية.

ـ لكن المشكلة لن تظهر لأنني لست قادماً معك سيد فيذرستون. ليس دون والدي.

ارتفع حاجباه الأسودان:

ـ أنت أحمق جداً.. وعنيد.

قابلت سيرينا عبوسه دون تردد:

ـ لا أستطيع أن أتساهل خاصة وأنا أعرف ضعف صحته.

ـ أتعتقد أنني سوف ألين وأغير رأيي لآخذكما معاً؟ أنت مخطىء.. لن أفعل. لدي قواعد محددة في الحياة لا أتجاوزها أبداً.. لديك نصف ساعة لتغير رأيك.

ـ لقد اتخذت قراري، وأنا مثلك لدي مبادئي الخاصة التي لا أستطيع تجاوزها.. ولن أتجاوزها إذا أردت العيش مع نفسي بضمير مرتاح.

وقف وشعرت بطول قامته وهو ينظر إليها بنفاد صبر.. ثم رمى ورقة نقدية على الطاولة ثمناً للقهوة:

ـ حسن جداً.. هذا خيارك.. وأرجو أن لا تندم عليه..

مد يده البنية القوية:

ـ وداعاً.. وحظاً سعيداً.

ـ بون ڤوياج سنيور.. وشكراً على استقبالك لنا ليل أمس.

تصافحا.. مع أن قبضتها كانت قوية بالمقارنة مع فتيات أخريات إلا أنها أحست بعظام أصابعها تكاد تُسحق تحت أصابعه القوية.. راقبته وهو يقطع الساحة بخطوات واسعة سهلة بالنسبة لرجل في حالة صحية ممتازة. ثم عاد صاحب النزل إلى الظهور مع القهوة.

ـ هل ذهب؟

ـ سي.. سيشرب والدي فنجان القهوة الآخر.

أخذت الكوبين منه واستدارت بقلب مثقل وصعدت السلم الضيق.

بعد خمسة أيام من اختفاء القارب الشراعي الأبيض وراء منعطف النهر، لحقت سيرينا بالقارب نزولاً مع مجرى النهر، دون أمل كبير في أن تلحق به.. فمركبها كان زورقاً محفوراً من جذع شجرة اشترته من شابة خلاسية كانت هندية أكثر منها إسبانية.

لن تكتشف إلا بعد وصولها إلى فم النهر ما إذا كان من الجنون الانطلاق بعيداً بمثل هذه الطريقة أم لا. لكن بعد المرارة القاتلة والساخرة لموت أبيها بسبب نوبة قلبية مفاجئة بعد أربع وعشرين ساعة من رحيل جيسكار.. كانت يائسة بما يكفي لئلاّ تهتم كثيراً بما يجري لها.

مضى أول يوم لها في النهر دون أحداث ولكنه لم يكن دون تعب فهي غير معتادة على التجذيف مما آلم كتفيها وظهرها.

أمضت ليلها راسية إلى طرف غصن شجرة متدلية، حيث أملت أن تكون آمنة من هجوم الحيوانات الضارية.. ومع هذا فقد كانت مرتعبة جداً، ونامت لفترات متقطعة قصيرة تزعجها أصوات ليلية غريبة من النهر والغابة المحيطة.

مع طلوع الشمس تزودت بقطعة «كايك» من دقيق الذرة والقهوة الباردة، وانطلقت من جديد وهي غير مرتاحة لكن سعيدة للتحرك مجدداً. خلال النهار مرت بتجربة مخيفة عند رؤيتها أفعى من نوع البوا ضخمة تنسل إلى النهر في مكان غير بعيد عن مكان مرورها..

كانت تأمل بحلول الليلة الثانية أن تصل إلى مستوطنة على جانب النهر.. لكن الضفتين الواسعتين امتدتا دون أي أثر لسكن آدمي، ومع حلول الظلام ربطت ولمرة أخرى الزورق إلى شجرة متدلية فوق الماء.

كان نومها لليلة الثانية مليئاً بالكوابيس والأصوات المخيفة الآتية من أعماق الغابة.. فجأة استيقظت على زمجرة خفيفة من مكان قريب، وكانت مستلقية تنتفض خوفاً عندما سمعت صوتاً آخر يكسر سكون الليل... صوت هدير محرك آلي.

لم تستطع أن تصدق ولوقت طويل أن هذا الهدير المكبوت هو صوت محرك قارب منطلق.. هل هو صاعد في النهر أم هابط؟ جلست مرهفة السمع.

بعد دقائق رأت مركباً صغيراً يتحرك صعوداً في منتصف المجرى بين الضفتين، بحيث أنها لو بقيت هادئة لمر بها دون أن يلاحظ الرجل في مقدمته من أو ما هو الكامن في ظلال الأشجار على ضفاف النهر.

لكنها لم تبق هادئة.. بل قفزت واقفة والقارب يهتز بجنون تحتها،

ثم وضعت يديها حول فمها وصاحت:

ـ جيسكار فيذرستون!

صرختها اليائسة رنت بشكل غريب في جنبات النهر المعتم.. ثم تحرك نور مصباح التفتيش فوق سطح الماء الجاري ليتوقف عند الزورق المحفور، والجسد الصغير المذعور فيه.

عندما استيقظت سيرينا من نوم عميق عرفت أنه دام لساعات، كانت مستلقية على مقعد خشبي مريح ووسادة ناعمة تحت رأسها، ولمعان الماء ينعكس على السقف الخشبي فوقها.

استلقت لبعض الوقت دون حراك وهي تحاول أن تتذكر كيفية وصولها إلى هذا المكان بدلاً من أن تكون في الزورق المحفور من جذع شجرة.

أخذ رأسها يجلو تدريجياً.. وتذكرت أنها فكت رباط الزورق وجذفت نحو المركب، وكانت محاولة مربكة أن تتقدم إلى جانبه وهي تمرر الصرّة الملفوفة بالبلاستيك التي تحوي بقايا لوحات أبيها.. ورفعها جيسكار بسهولة وكأنها طفلة صغيرة، وكانت بالفعل أخف عدة كيلوات عما كانت عليه يوم ودعته دون أن تتوقع رؤيته مرة أخرى.

تذكرت أنها تعثرت في طريقها إلى سطح المركب مرتجفة وهي تشعر بردة فعل عصبية، وتذكرت أنها شربت شيئاً، وقرصين من دواء ابتلعته دون أن تسأل ما هو. بعد وقت قصير، استولى عليها التعب الجسدي والفكري ليجرفها كموجة كبيرة.. آخر ما تذكرته كان أنها تقلبت على جنبيها فوق المقعد المعلق وسمعت صوته يقول:

ـ هذا جيد.. ! اذهب إلى النوم.

ثم قال شيئاً آخر بدا لها قادماً من مكان بعيد، ونفق طويل طويل.

لا شك أنه حملها ونقلها من غرفة الجلوس النهارية إلى حيث هي الآن نائمة.. فهل أزال عنها ثيابها كذلك؟ وأجفلت بقلق.

لكن لا.. رفعت الغطاء الخفيف الذي وضعه فوقها فوجدت أنها لا تزال مرتدية كل ثيابها.. استرخت بشهقة ارتياح إلى أن تذكرت كم هي متسخة لا تناسب أن تستلقي على شرشف نظيف ووسادة خالية من أي

عيب، فقفزت وطوحت بقدميها الحافيتين إلى الأرض.

لقد مر الآن على الأقل ثمانية وأربعون ساعة منذ أن نظفت نفسها جيداً آخر مرة.. مع أنها غسلت وجهها ويديها جيداً أكثر من مرة في ماء النهر. إلا أن الحرارة وجهد التجذيف جعلاها تصبح دبقة بشكل لا يحتمل.. مع أنها لم تكن تعي هذا حتى الآن حتى وجدت نفسها في محيط أنظف وأكثر تمدناً مما عرفته للعديد من الأشهر، وأحست بالاشمئزاز من نفسها وكأنها الجرذ.

لكن لو طلبت أن تغتسل، قد يتوقع جيسكار منها هذا على السطح في الشمس مستخدمة الجردل.. من الآن وصاعداً سيكون من الصعب جداً إذا لم يكن من المستحيل أن تخفي حقيقة جنسها عنه. فالرجال دون وجود النساء معهم يصبحون أقل ارتباكاً من بنات جنسها..

لو تأكدت أن معرفته بأنها فتاة ستؤمن لها الحماية منه لأطلعته فوراً على حقيقتها.. ولو أنه كان بالفعل، تودو ان سنيور، فتركه يتصرف بكامل حريته أمام صبي مراهق على متن مركبه، لا شك أمر سيكون فيه إحراج لها وله عندما سيكتشف أمرها آخر الأمر.

كانت واثقة أن أي رجل لطيف لن يعجبه المرور بمثل هذه التجربة.

لكن هل جيسكار فيدرستون رجل لطيف؟ هناك دلائل كثيرة تدل على أنه ليس كذلك.. خاصة رفضه القاسي أن يحمل والدها معه على مركبه.

فجأة، ولأول مرة، خطر ببالها أن تتساءل لماذا كان يتجه صعوداً ليلة أمس.. أيمكن أن يكون السبب أنه غير رأيه وعاد ليأخذهما؟ وما الذي دعاه للعودة غير هذا؟ وحتى وإن غير رأيه وندم على تركهم خلفه فهذا لا يعني أن عليها الثقة بأنه سيتصرف بشهامة إن كشفت عن نفسها وظهرت على حقيقتها كفتاة.

إنه رجل.. فرد من الجنس القوي، الأناني، والظالم دائماً والذي لقرون عديدة ألقى النساء خاضعات وعاجزات وهو لا يزال يفعل هذا مندفعاً بغريزة أبناء جنسه التي لا يمكن السيطرة عليها.

أفكارها أرسلت رجفة في أوصالها.. لقد أصبحت آمنة من أخطار النهر، لكن ليست آمنة تماماً. غرقها أو تحطيم عظامها حتى الموت بفعل

إحدى أفاعي الماء الضخمة ليس أسوأ أبداً من الموت الحي الذي قد يجبرها هذا الرجل عليه، بعد أن يفعل بها ما يريد.

فُتح الباب ودخل جيسكار فأجفلت في فسحة الكابين الضيقة حيث بدا لها عملاقاً خافت منه بغريزتها.

قال:

ـ آه.. لقد صحوت.. جيد.. تعال لتناول الغداء.. فيما بعد بإمكانك الاستحمام.. لكنني أظن أن الطعام هو أول ما تحتاج إليه الآن.

جعلتها رائحة لذيذة من المطبخ تدرك كم هي جائعة.. وذكره للاستحمام خفف للوقت الحاضر تخوفها من الاعتراف بالحقيقة له.. قالت وهو يشير إليها أن تسبقه:

ـ أنا.. لا شك.. نمت أكثر من اثنتي عشر ساعة.

ـ أجل.. كان يمكن أن تفعل هذا في الحالة العادية، لكنني أعطيتك حبوباً منومة لأتأكد من أنك ستنام، فقد بدوت فاقد القدرة على التحمل.

ـ أجل.. كنت قريباً جداً من هذا.

أوقفت تفكيرها عن التفكير بأي أمر عدا أول وجبة محترمة لها منذ وفاة أبيها، وأطاعت تعليماته بأخذ مكانها على الطاولة. ومع أنها كانت جائعة جداً إلا أنها سرعان ما شعرت بالتخمة.. فمعدتها لم تكن معتادة على الوجبات الكبيرة وجسدها ليس ضخماً كجسد جيسكار لتملأه وقوداً.

تناولا الطعام بصمت.. وبعد أن تناول قطعة اللحم السمكية مع الفطر والبيض والبطاطس المسلوقة.. أتبعها بالجبن والبسكوت. لكن عندما قدم لها بعضاً منه إضافة إلى طبق البيض المقلي بالفطر الذي أكلته أومأت برأسها رافضة.

بعد أن تناولا القهوة بالحليب سألها:

ـ ما الذي دهاك لتخوض مثل هذه المغامرة الحمقاء باللحاق بي في زورق صغير؟

ـ لم أكن ألحق بك.. كنت أحاول السفر لوحدي.

ـ ماذا! نزولاً لمئة ميل في النهر؟ لا بد أنك مجنون! ترفض عرضي بأخذك معي ثم تحاول السفر لوحدك.. هل غادرت دون أن تخبر أباك ماذا

تنوي أن تفعل؟ أم أنه فقد كل أحاسيسه..

ـ لقد فقد كل شيء.. لقد مات.. لاحظت ليلة تناولنا العشاء عندك أن تصرفاته غريبة ولا شك أنه كان مريضاً يومها.. وبدا على ما يرام في اليوم التالي لكن في اليوم الذي تلاه انهار..

تساءلت رغم انتقاداته لوالدها هل سيكون لديه القليل من النفاق لمشاطرتها العزاء. لكن رده كان متناغماً مع نقص العواطف التقليدية الذي بدا أنه السمة المميزة له.. وقال بجرأة:

ـ إنها صدمة.. لكنها أفضل له ولك من مرض طويل في مكان يبعد أميالاً عن أية تسهيلات طبية مناسبة.. إذا كنت أنهيت قهوتك سأريك كيف يعمل رشاش المياه.

كانت تنوي أن تسأله ما الذي غير فكره حتى عاد.. لكن بينما هي تستحم وتتنعم برغوة أفضل أنواع الصابون الإنكليزي، قررت أن لا تسأله شيئاً.

مضت سنوات لم تشعر فيها بمثل هذه النظافة. جففت نفسها وارتدت قميصاً نظيفاً وسروالاً أحضرتهما معها لأنهما مرتبان أكثر من ثيابها بقليل.. اعترفت سيرينا لنفسها أن شخصاً موسوساً أكثر منها كان سينكمش من فكرة ارتداء هذه الملابس، لكن الحياة لم تسمح يوماً أن تمتلكها الأحاسيس الرقيقة.. ولم يبدُ عليه الاستغراب عندما ظهرت أمامه بثياب أبيها الذي كان صغير البنية ولا يزيد طولاً عن طفلته، لذلك لم تكن ملابسه كبيرة جداً عليها بل قليلاً فقط وهذا أمر جيد لها طالما حافظت على تنكرها.

شغلتها هواجسها المتوترة إلا أن شيئاً لم يحدث يعرّضها لكشف حقيقتها. كانت تنام معظم الوقت ولم تشعر بمثل هذا التعب من قبل، وافترضت أن السبب هو ردة فعل سنوات طويلة من التوتر والقلق.

بقي يوم واحد على وصولهما إلى فم النهر حيث المدينة التي سيسلمها فيها إلى القنصلية، عندما فاجأها بالقول بلغته:

ـ أظنك بحاجة إلى فترة من التأقلم نفسياً وجسدياً قبل انتقالك إلى أوروبا.. فهل تحب أن تقيم على متن المركب حتى نصل «أنتيغوا»؟

لم تصدق أنه يعني ما يقول.. وأجابت:

ـ أيمكنني هذا؟ أوه.. أجل.. أرجوك!

ـ لكن عليك أن تكتفي بالقليل من النوم ونحن في عرض البحر.

كانت قد استيقظت لتوها من قيلولة طويلة تحت المظلة التي كانت دائماً ممدودة وهما يسيران بقوة المحرك بدلاً من الشراع..

ـ أوه.. لا.. سأجعل من نفسي مفيداً. ولن تندم على هذا سيدي.. شكراً لك.. شكراً لك..

ـ لا داعي أن تنادني بسيدي طالما أنت تنفذ طلباتي منك وتوجيهاتي إليك.

نزل إلى الأسفل وتركها تحتضن نفسها بغبطة للإنقاذ المؤقت الذي لم تكن تتوقعه من تركها لوحدها بين الغرباء.

مضى زمن طويل منذ أن رأت سيرينا المحيط آخر مرة.. كانت المياه ولعدة ساعات من بروزهما من «دلتا» النهر تصفع جسم المركب مليئة بالأوحال التي يجرفها النهر الكبير.. لكن رائحة الماء كانت مثل رائحة البحر والريح المليء بالملح سرعان ما مسح آخر أثر للرائحة العفنة لطبقات الوحل، ورائحة غابة المطر الثقيلة.

سألته في أول ليلة لهما في البحر، وهما يتجهان شمالاً حيث كانا في المطبخ.

ـ لماذا سميت مركبك «الراين» أي المطر؟

في البداية ظنته لم يسمعها أو أنه سمعها واختار أن يتجاهل السؤال الشخصي الأول الذي تسأله.. لكن بعد صمت قصير أجاب: لقد اشتريته بمطر الماس.

ـ مطر الماس؟

ـ ألم تسمع بالملكة ڤيكتوريا؟

ـ طبعاً، حكمت بريطانيا لأربعة وستين سنة من عام ١٨٣٧ إلى ١٩٠١.. وكان لها ستة رؤساء وزارة..

سألها: أين تعلمت كل هذا؟

ـ أنا لست أمية تماماً، كان لدينا انسكلوبيديا، موسوعة في كتاب

واحد، قرأتها، ورسخ في ذهني وقائع محددة.

ـ فهمت.. حسناً، في أول عشرين سنة من عهد ڤيكتوريا كانت الأحجار الكريمة، خاصة الألماس، ترتب أحياناً في شكل شلالات ماء، أي في حبال مستقيمة من الأحجار ترتب جنباً إلى جنب، وأحياناً في حبال منفصلة حيث تعرف بالمطر.. عندما كنت في الواحدة والعشرين تركت لي سيدة عجوز عقداً من مطر الألماس كان لجدتها الكبرى.. بعته لأشتري هذا المركب ثم سميته على اسم الحلية.

تمتمت وكأنما لنفسها:

ـ مطر الألماس.. لا بد أن يكون شيئاً جميلاً.

ـ بجمال نور القمر فوق بحر هادىء، أو الرذاذ المتطاير من مقدمة المركب.. ومعظم من يرتدي الماس لا يعرف قيمة الثروة التي بحوزته.. ولطالما أذهلني أن أقرأ عن نساء يرفضن ارتداء أنواع من الفرو أو استخدام مواد تجميل محددة، لأنها تسبب المعاناة للحيوانات.. لكنهن لا يتوقفن عن ارتداء الذهب مع أن الذهب يستخرجه البشر في ظروف سيئة جداً.

جعلتها لهجته تتساءل وهو يقول «النساء» هل أنه يفكر بامرأة محددة.

توقفا قرب الساحل في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي، في خليج مياهه صاخبة، بلون الزبرجد الأخضر المزرق.. لكن جيسكار منعها من السباحة لوجود سمك القرش، وقال بعد أن رمى مرساة المركب.

ـ لكننا نستطيع رفع بعض الماء في الجردل لدوش ماء مالح في الشمس.

إذن اللحظة التي كانت تخشاها حلّت. أي صبي في مكانها سيخلع ثيابه ويتمتع بصب الماء عليه من الجردل.. فماذا ستفعل هي الآن؟ فكرت بذعر نفتش عن عذر ما. كان جيسكار عارياً حتى الوسط طوال اليوم، وتوقعت أن يوبخها لأنها لا تزال ترتدي ثيابها العلوية. لكنه لم يقل شيئاً حتى الآن.

طوى سرواله القصير واستدار:

ـ هيا تحرك يا ولد.. ما الأمر؟

جفت حنجرتها واحمرّ وجهها احمراراً قاتماً:

ـ أنا.. أنا..

ضاقت عينا جيسكار الرماديتان، وضحك ساخراً:

ـ أتتصور حقاً أنني لا أعرف سرّك تشيكيلا؟

ركز على نهاية الاسم الأنثوي.. وأكمل:

ـ لقد عرفت هذا على الفور تقريباً.. ولأنني عرفت حقيقتك غيرت رأيي وعدت إليك.

ـ كيف.. كيف عرفت؟

ـ يا فتاتي العزيزة.. كل شيء كان يكشف لعبتك.

هز رأسه نحو اليابسة:

ـ ليس لمثل هؤلاء الناس ربما.. لكن بكل تأكيد لرجل إنكليزي لديه قوة ملاحظة معقولة. ما اسمك الحقيقي؟

ـ سيرينا.

ـ كنت أتساءل عما هو. اسم جميل، ويتناسب مع الشعر الطويل والتنانير، أكثر مما يتناسب مع هذه الثياب الرثة الواسعة.. من الآن وصاعداً يمكنك أن تعودي إلى هويتك الحقيقية كفتاة.

مد يده ممسكاً ذقنها بحزم، رافعاً وجهها المحمرّ نحوه:

ـ وربما لن تكوني سيئة المظهر بعد أن تتعلمي كل حيل بنات جنسك.

تركها ونزل إلى الطابق السفلي.. سمعته ينادي بعد لحظات:

ـ تعالي إلى هنا سيرينا.

تحركت بخطوات متعثرة لتطيع أمره متذكرة الشروط التي استبقاها بها على المركب: «طالما تفعل دائماً ما أقوله لك حين أقوله لك».

ولم يكن جيسكار في القمرة النهارية. فنادت خائفة: «أين.. أين أنت؟»

ـ هنا.. في القمرة الإضافية.

بدأت ترتجف، قمرتها كانت بسريرين مثل قمرته لكن القمرة الإضافية فيها سرير عريض يستطيع أن ينام عليه شخصان معاً..

تقدمت إلى الباب مشدودة الأعصاب ومضطربة ومرتعبة إلى حد

www.elromancia.com

كبير، ومنذ تحدث الكاهن إلىٰ والدها منذ سنوات وهي تلاحقها المخاوف من أن تؤخذ عنوة..

وقفت قرب فتحة الباب.. تحول خداها المحمران إلى لون شاحب خائف فيما يداها مضمومتان معاً بخوف شديد:

ـ أر.. أرجوك.. لا تؤذني.. أتوسل إليك..

ـ أؤذيك؟

كان يجلس على حافة السرير يحاول أن يدفع درجاً بارزاً من تحت السرير إلى الخلف.

كان ذعرها غامراً لكل أحاسيسها بحيث لم تكن تعي أي شيء سوى الجسد البني البشرة، للرجل الذي وضعت نفسها تحت سلطته.. عندما وقف انكمشت إلى الخلف بصيحة ارتباك تثير الإشفاق.

ـ ماذا دهاك بحق السماء يا فتاة؟ كنت أفتش لك عن بيكيني ولقد وجدته.. لقد تركته امرأة من مجموعة سواح استأجروا القارب منذ مدة.

وهو يمد يده بقطعتي الثوب البراق، كان في لهجته ما يوحي أنه فهم ما بها قبل أن تستطيع تلافي غلطتها.. فشهق وقال بصوت أجش:

ـ يا إلهي! أي نوع من المتوحشين تظنينني؟ أنت لا زلت طفلة.. طفلة صغيرة نحيلة!

ـ هناك.. هناك.. رجال قد..

لم تذرف دمعة منذ سنوات وها هي الدموع الآن تنهمر على خديها بسرعة لم تستطع معها أن تمسحها بأصابعها المرتجفة.

كانت تتنفس بشهقات طويلة مدمرة حتى أنها لم تع أنه أخرجها إلى القمرة النهارية وأجلسها على المقعد الخشبي المعلق.. بعد لحظات أعطاها فوطة نظيفة تدفن فيها وجهها وهي تقاوم لتستجمع شتات نفسها.

أخيراً، وبعد أن سكن نحيبها، مع إبقائها لوجهها مخبئاً.. قال لها:

ـ أصغ إليّ. هناك رجال مثل الذين تخافين منهم لكنني لست واحداً منهم.. أنت آمنة معي كما كنت آمنة مع أبيك.. بل أكثر أماناً.. لأنني قادر على حمايتك أكثر منه.

عندما رفعت وجهها المبلل بدت رموشها السميكة مثقلة بالدموع

ورأت سيرينا شبح ابتسامة ترفع طرفي فمه.

ـ الآن لا تتابعي الإمساك بالطرف الغلط من تلك العصى يا فتاتي.. أنا أحب النساء مثل أي رجل آخر.. لكن نساء ناضجات، بصدور وخصور وأرداف، وليس عوداً طرياً غير ناضج مثلك «تشيكوتيا». عندما تبلغين.. لنقل.. التاسعة عشرة وتصبحين بقياس اثني عشر، قد يكون لديك ما تقلقين عليه.. لكن هذا بعيد لبضع سنوات.. وفي هذه الأثناء يمكنك اعتبار نفسك كأختي الصغيرة.

صمت قليلاً ثم أضاف:

ـ في الواقع ستكون فكرة جيدة إن قابلنا أوروبيين آخرين أن نتظاهر بأننا أخ وأخته.. ليس السبب أن أحداً قد يرفع حاجبه لفتاة ناضجة مع رجل على متن مركبه هذه الأيام، لكنك لست ناضجة ولا أريد أن يظن أحداً غيرك أن لدي ميولاً كريهة كالتي ارتبت بها لتوك.

قالت بخجل مؤلم: أنا آسفة.

كان لطف لهجته وتفهمه مختلف تماماً عن تصرفه السابق. لم تكن تتوقع أنه قادر على التكلم بهذه الطريقة اللطيفة، وكان هذا يكشف ناحية من طبيعته ظنت أن لا وجود لها عنده.

قال بخشونة أكثر:

ـ سأصعد إلى السطح، بعد أن تستجمعي شتات نفسك جربي هذا البيكيني.. إنه يناسبك تماماً.. فالمرأة التي كانت تملكه لم تكن سمينة بل كانت عظامها بارزة.

وجدت سيرينا أن البيكيني لم يكن سيئاً..

لقد تكلم وكأنما التاسعة عشرة سن لن تصله قبل وقت طويل.. وواضح أنه يظنها أصغر بكثير مما هي.

عندما انضمت إليه على السطح ورأى بياض جسدها الشاحب قليلاً مقارنة مع لون بشرته.. قال بصراحة:

ـ تبدين كمن كان يعيش في قوقعة أو تحت جحر يا فتاة.. فحاذري من أن تحرقك الشمس.

لم يكن وجهها ويديها شديدي السمرة من قبل، فحرارة أميركا

أيام من ارتدائها البيكيني غيّر هواء البحر مظهرها الأصفر إلى الذهبي العسلي الدافىء.. وبدأت الأجزاء الشاحبة منها تتغير كذلك. كان لعينيها الخضراوين لمعان جديد في نهاية العشرة أيام في البحر، وبدأت تأكل بشهية مثل جيسكار ولأن أيامها الآن أصبحت مليئة بالنشاطات، لم يصبح جسمها أكثر استدارة.

كانت تعمل جاهدة كي تتعلم الإبحار جيداً، تحت السطح وفوقه.. ليلاً، بعد العشاء، كان كلاهما يقرأ. كان جيسكار يقرأ كتاباً ضخماً بأربعة أجزاء اسمه «أفول وانهيار الأمبراطورية الرومانية» مؤلفه «ادوارد جيبون» قال لها إنه أحد أعظم الكتب في العالم.. وبدا لها ثقيل اللغة لكنها انغمست بسهولة في كتب الإبحار والطبخ.

أحياناً لم تكن تصدق أن الحياة يمكن أن تكون جميلة هكذا وسعيدة مع سريرها المريح والوجبات الثلاثة الشهية والحمامات المتكررة مع الشامبو وإحساسها المتجدد بالأمان.

ما أزعجها أن موت والدها لم يعن الكثير لها. لكن حين أسرّت بهذا لجيسكار، قال ببروده المعتاد وطريقته المادية البحتة:

ـ لن أسمح لهذا بأن يزعجك.. الندم على الماضي هو أكثر التجارب فشلاً في الحياة، كما أن النظر المستمر إلى المستقبل ليس أفضل حالاً.. الطريقة الصحيحة للعيش هي الاستفادة من الحاضر بأفضل مما يمكن.

وكانت نصيحة يمارسها بنفسه حسبما تعتقد، وكانت تنجح معظم الوقت في اتباع مثاله، بإغلاق تفكيرها أمام المشاكل التي سوف تواجهها عندما تنتهي هذه الرحلة الذهبية.. كم من الوقت يلزمهما للوصول إلى «أنتيغوا».. إنها لا تعرف وتفضل أن لا تسأل.

قال رداً على سؤال طرحته عن المسافة الاجمالية التي تفصل الأميركيتين، وكان يريها خريطة لسلسلة الجزر المبعثرة التي كان يُظن في الماضي أنها تشكل برزخاً متصلاً ما بين فلوريدا وفنزويلا:

ـ المسافة تقريباً هي خمسمئة ميل بحراً.. من الولايات المتحدة إلى ترينداد ألف وثمانمئة ميل جواً.

* * *

أخذها جيسكار لتتسوق بعض الملابس في شوارع «بورت سباين» المزدحمة.. اشترى لها حذاءً أحمر للذهاب إلى الشاطىء، وسروالين قصيرين للشاطىء كذلك، وتنورة زرقاء قطنية، وعدة بلوزات قطنية برّاقة الألوان.

لم يكن أي من هذه الملابس ما يمكن أن تختاره بنفسها.. لكن حين أوصت البائعة المتوسطة السن بفستان صيفي وجدته سيرينا فاضحاً كثيراً، اعترضت وقالت لجيسكار إنها تفضل أن تصنع واحداً لنفسها.

قال بارتياب: أتظنين نفسك قادرة على هذا؟

ـ أعرف أنني قادرة.

وسألت البائعة مخاطبة جيسكار كما كانت تفعل منذ البداية:

ـ أتحتاج السيدة الصغيرة إلى ملابس داخلية؟

وافق جيسكار:

ـ أجل ستحتاج إلى بعض الملابس الداخلية.

أرسلتهما البائعة على الفور إلى قسم آخر، وشرحت لزميلة لها أصغر عمراً وأكثر جمالاً أن الآنسة فقدت كل ملابسها، وتحتاج إلى إعادة تجهيزها بكسوة كاملة.

نظرت سيرينا بحسد إلى التريندادية الجميلة وراء منصة البيع التي زينت عينيها لتزيد سحرهما الذهبي العميق وأظافرها الطويلة المطلية بلون يماثل لون أحمر شفتيها، وفكرت أنهما لا شك تظنان أن مركبهما تحطم حتى فقدت كل ثيابها.

سألت الشابة:

ـ ألا تحتاج الشابة إلى صداري؟

هزت رأسها نفياً.. تحس بالاضطهاد لاستمرار نحولها الشديد.. حتى خديها لا يزالان مجوفين وذلك رغم الوجبات الكبيرة التي تتناولها.. العظام البارزة كما يبدو هي جزء من طبيعتها مثلها مثل عظام قطة، ولكن الفارق هو أن عظام القطة مخبأة تحت فروها، بينما عظام معصميها

وكتفيها بارزة.. هل ستكون يوماً جميلة وملفتة للنظر كبقية النساء؟

تركها جيسكار في قسم بيع القماش وذهب لشراء أشياء خاصة به.. وبعد أن أخذت قياسها المرأة الأولى في الطابق الأعلى عرفت سيرينا ما هو مقاسها. وأمضت عشر دقائق وهي سعيدة بتصفح كتاب أزياء ضخم إلى أن وجدت زياً أعجبها.

كان قد ترك لها بعض المال لتشتري القماش الذي تحتاجه وأي معدات لازمة لا تملكها، وقد لاتجدها في مخزن المركب. وكانت مستعدة بانتظاره حين عاد حاملة تحت إبطها ثلاثة أمتار من القماش القطني الأخضر بلون البحر.. بينما كانت تتصفح الكتاب وجدت لائحة بالمقاييس، وأدركت أنها كي تصل إلى القياس اثنا عشر المثالي الذي يراه جيسكار، عليها أن تزيد ثلاثة إنشات حول مؤخرتها ووركيها، وأكثر من هذا بكثير حول خصرها الضيق.

لم يبقيا كثيراً في ترينداد وتحركا إلى الشمال إلى «توباغو» جزيرة أصغر حجماً وأكثر جمالاً على بعد عشرين ميلاً إلى الشمال الغربي..

هنا رسيا في أجمل خليج تصورته سيرينا حيث شاركا مرساهما مع مجموعة في يخت، من ضمنهم مطلقة من نيويورك اسمها جيني وايل.

جيني وصديقتيها ومضيفتهما ماري لو، كن على عكس كل النساء اللاتي قابلتهن سيرينا من قبل.. فنتها اكتمال زينة أظافرهن الطويلة والعناية التي تضعن فيها مراهم الحماية من الشمس فوق ثنايا أجسامهن، قبل وخلال تعرضهن للشمس، فقد كن لا ينتزعن مجوهراتهن، ويبقين على سلاسل الذهب والخواتم حتى وهن يسبحن.. لكن كانت تختلف سباحتهن عن سباحتها.. فهن لم يقفزن يوماً من على سطح المركب، أو يسبحن تحت الماء، لأن هذا يفسد شعرهن وزينتهن الدائمي الاكتمال.

كانت كل أحاديثهن عن مظهرهن وثيابهن، سألت سيرينا جيسكار عما سمعت ورأت بعد الإصغاء إلى حديثهن.

ـ هل تصبغ الكثيرات من سيدات بريطانيا شعرهن ويشددن وجوههن، ما إن يرين بضع شعرات بيضاء وبضع خطوط؟

ـ لقد مضى زمن طويل منذ أن تركت انكلترا.. وأظن أن معظم

السيدات كن يصبغن شعرهن.. ولا أعرف شيئاً عن شد بشرة الوجه.. مع أنني لا أظن أن الكثيرات يفعلن هذا.. بسبب الكلفة المرتفعة.

ـ جيني وماري لو تتكلمان وكأن الجميع يفعل هذا في أميركا.. وليس النساء فقط بل الرجال أيضاً.

رد بحدة:

ـ معتوهون..! أستطيع أن أفهم لماذا المرأة تريد أن تبقي على جمال مظهرها قدر الإمكان.. لكن أي رجل يصاب بمثل هذا القلق حول مظهره...

ولوى فمه ساخراً للتعبير عن رأيه، بعد قليل سأل:

ـ وهل شدّت هاتان المرأتان وجهيهما؟

ـ لا.. لكن ماري لو تفكر بهذا.

ـ لا شك أنهما تجدان مظهرك مؤلماً لهما.

سألته دون أن تفهم: مؤلم؟

لم يقل شيئاً للحظات ثم قال:

ـ منظر برعم والندى عليه لا يمكن أن يروق كثيراً لوردة مكتملة متفتحة، وقد بدأت تذبل.

لم تفهم هذا التشبيه إلا بعد أن لامس خدها بأصابعه وعيناه تلمعان بلطف.. وعرفت أنها في نظره برعم الوردة والندى فوقه.

لكن بعد إرسال لمسته قشعريرة سعادة في جسدها، استدار مبتعداً وصعد إلى السطح، وتركها مذهولة وسعيدة. كانت تظنه يستجيب إلى محاولات جيني الجريئة لجذبه.. وبدا لها الآن أنه لا يهتم بها كثيراً.

فكرت باعتزاز بلمسته طوال اليوم الذهبي الحار، ولمحة الحنان في صوته.. حتى أنها سمحت لنفسها أن تحلم.. ودون أن تعي.. أنه ربما ينتظر البرعم حتى تتفتح أوراقه.

تبددت تلك الفكرة في تلك الليلة وفي حفل الشواء على الشاطىء عندما رأت جيني تنظر إليه بإغراء وردّ جيسكار النظر بتعابير جعلت سيرينا تشيح بوجهها وقد فُسدت كل سعادتها السابقة.

كانت النظرات المتبادلة إشارات رأتها من قبل خلال حياتها المتنكرة

مع أبيها، حيث كان يأخذها إلى حانات مشبوهة لا يوجد فيها سوى فتيات.. وهن فتيات السوء.

كانت ابتسامات تلك النسوة المغوية تبدو على وجوههن الزيتونية الشاحبة مثل الدهان الذي تتزين به.. لكن في حالة جيني كانت ابتسامتها الغاوية تبدو حقيقية.. فقد شاهدت سيرينا الكثير من الرجال ولهيب الرغبة في عيونهم، بحيث لا يمكنها أن تخطىء في نظرة جيسكار ولتحس بها كضربة إلى قلبها.

في الصباح التالي، قررت المرأتان الأميركيتان أن تذهبا إلى مؤسسة تجميل في فندق «مونت ايرفن باي» بينما يرتاد زوج ماري لو وشقيقها ميدان غولف قريب.

قالت ماري لو: لماذا لا تأتي معنا سيرينا؟ حتى ولو كنت تخططين لتطويل شعرك، يجب أن يشذب باستمرار.. إنه سميك وجميل وصحي.. لكن إذا كنت لا تمانعين في أن أقول حبيبتي، يحتاج إلى عناية من مزين جيد.. وسنكون سعيدتين بأن نأخذك معنا.. أليس كذلك جيني؟

- بالتأكيد.. ماري لو على حق.. شعرك في حالة رائعة لكنه يحتاج إلى تشكيل قليلاً.

لم تكن سيرينا بحاجة لمن يقول لها إن شعرها يحتاج إلى بعض المعالجة لجعله ينسدل على كتفيها في خصلات أنيقة كالتي رأتها في دعايات الشامبو والصباغ التي شاهدتها في المجلات الأميركية.. حاولت تحسين شعرها بنفسها بقص أطرافه قليلاً بمقص الأظافر لكنها لم تنجح سوى بجعله مشعثاً أكثر.

كبح توقها لقبول اقتراح المرأتين قلقها من أن يكون هذا مكلفاً كثيراً.. عندما أكدتا لها أنه لن يكون هكذا ذهبت لتكلم جيسكار، وهي تتمنى لو لم يكن من الضروري تحميله مصاريف أكثر، لكنها كانت تتمنى أن تصبح مقبولة الشكل.

لم يكن لديها متسع من الوقت في «بورت اسبانيا» لمحاولة بيع لوحات أبيها.. لكن عاجلاً أم آجلاً سيتوقفان في مكان يوجد فيه محل

لبيع اللوحات يشتريها منها.. وستتمكن من إعادة ما تدين به له.

قال جيسكار عندما استشارته:

- أجل.. قصي شعرك.. مهما كلف الأمر.

وأعطاها بعض الدولارات.

لم يكن قد بقي وقت طويل أمام المجموعة التي ستنزل الشاطىء في زورق اليخت التجاري حتى تأوهت جيني فجأة آهة خيبة.. وقالت تفسر ما بها عندما سألتها صديقتها:

- إنني أرى دوامات أمام نظري.. وتعرفين ما يعني هذا! بعد أقل من ساعة سأصاب «بالميغران»، وأنا مضطرة للبقاء في اليخت، والاستلقاء لأرتاح.

- يمكننا الذهاب غداً.

- لا.. لا.. بإمكانكم الذهاب.. لا تستطيعون فعل شيء لي.. سأتناول بعض الحبوب وأذهب إلى الفراش.. سأكون أفضل حالاً هذا المساء.

أصدر الآخرون أصوات الإشفاق عليها لكنهم لم يصروا على البقاء.. وسألت سيرينا ماري لو مع بدء تحرك الزورق:

- ما هو الميغران؟

- إنه نوع مؤلم جداً من الصداع، أحياناً يتسبب بالغثيان، وجيني مصابة به منذ سنوات.. ولا يبدو أن له نمط محدد.. كانت على ما يرام تماماً عند الفطور.

- أوه.. أجل، فهمت ما تعنين.. لقد عرفت أشخاصاً يعانون منه.

عادت النسوة من رحلتهن حوالي الساعة الرابعة يرافقهن زوج جيني.

قالت ماري لو لدى رؤيتها رأسين في الماء بين مكان رسوهما والشاطىء.

- أوه.. عظيم! لا شك أن جيني في حال أفضل!

اتجه زوجها نحوهما وأوقف المحرك بخبرة جعلت الزورق ينسل بهدوء نحو السابحين.. وأجابت جيني على أسئلتهم:

- أجل.. أنا الآن بخير.. لم أصب بالميغران، بل كان صداعاً عادياً تلاشى بسرعة بعد أن تناولت أقراصاً مسكنة.

والتفتت إلى سيرينا:

- يا إلهي! كم يبدو شعرك جميلاً سيرينا! أجمل بكثير من ذي قبل، ألا تظن هذا جيسكار؟

- إنه أجمل بكثير.

لا شك أن تعليقه المختصر وتفحصه السطحي لها، كان على أساس دوره كأخ لها، مع ذلك فقد أضعف هذا من سعادتها للنتيجة التي تحققت على يد المزيّن الخبير، الذي حوّل شعرها المشعث إلى شعر متمايل، متوسط الطول، شكلاً وحركة.

بينما كان جيسكار يسأل الرجلين عن رأيهما في حفل الغولف لمحت سيرينا نظرات متبادلة بين المرأتين، فعلمت عندها أن تمارض جيني لم يكن إلا ادعاءاً.. ومن الواضح أن ماري لو كانت مشاركة في الخداع.. حتى ولو لم تلحظ سيرينا الأمر منذ بدايته، إلا أنها لم تكن بلهاء إلى حد أن تفشل في تفسير معنى رفع المرأة الأكبر سناً لحاجبيها وكأنها تسأل جيني: كيف جرت الأمور؟.. وردت الأصغر سناً بحركة تعني: بشكل رائع!

عندها تأكدت سيرينا من حصول علاقة غرامية بين جيسكار وجيني خلال غياب الجميع وهذا كان خيبة أمل مؤلمة لها.

تلك الليلة لم تنم طويلاً، وشعرت بحركة أوقظتها. كان نومها خفيفاً كمخلوق برّي، تجفل حذرة عند أقل إزعاج.. مؤخراً بدأت تنام بعمق.. لكنها الليلة وربما لأنها ذهبت إلى النوم بمزاج معكّر، وجدت نفسها فجأة مستيقظة كما كان يحصل معها في الماضي، كتمت أنفاسها وهي تصغي إلى تكرار الصوت الذي أيقظها.. عندما لم تعد تسمع شيئاً بعد دقيقة أو اثنتين، نزلت عن السرير المعلق وخرجت وهي تحدق إلى الخارج من خلال الكوة.

في البداية لم ترَ شيئاً.. لكن كان هناك دافعاً جعلها تستمر في المراقبة.. فجأة وضمن مسافة نظرها رأت قارب «الراين» المطاطي القابل للنفخ، يجذف به جيسكار بهدوء شديد حتى أن ضربات المجذافين لا تكاد تسمع أمام همسات المحيط التي لا تنتهي على الصخور.

رأته سيرينا يقترب من المركب الآخر ويوقف الزورق، بينما نزلت جيني التي كانت تنتظر لتنضم إليه.

حاولت أن تقنع نفسها أن هذا أمر لا شأن لها به رغم معرفتها عكس هذا، وراقبتهما وهما يتحركان بعيداً عن الأنظار باتجاه الشاطىء.. وقدرت أنهما لن يعودا حتى تصبح الساعة أقرب للفجر.

في الصباح التالي لم يكن في تصرفات جيسكار نحوها ما يوحي بأنه وجيني أصبحا على مستوى تعارف حميم ويبدو أنها أخطأت بتفسير ما بينهما، فقد أعلن جيسكار فجأة وقت الغداء على متن المركب الثاني، أنه وسيرينا سيرحلان بعد الظهر.

عندئذٍ أحست سيرينا بالأسى على جيني.. فقد بدت مصدومة.. وقالت ماري لو:

- بسرعة هكذا؟ هل أنت مضطر؟ لماذا؟

رد ببرود: لدينا موعد هام في «أنتيغوا».

فيما بعد وبعد أن لوحا وداعاً للآخرين، سألته سيرينا متى سيصلان إلى «أنتيغوا».. فأجاب:

- متى يروق لنا.

- لكنك قلت...

- كذبة بيضاء تشيكويلا.. بإمكان المرء أن يمل صحبة الآخرين مهما كانوا لطفاء.

- لا شك أنك سئمت كثيراً من صحبتي حتى الآن.

- أنت مختلفة.. فأنت مفيدة لي ولا تثرثرين مثل تلك المرأتين.

مضى وقت طويل قبل أن تتوقف الحادثة عن إزعاجها. مع أن بعض الناس قد يدينون تصرفه، فإن جيني هي التي خططت لعلاقتهما القصيرة.. ولو أنها تصرفت بسرّية أكثر لربما استمرت تلك العلاقة وقتاً أطول.. من الواضح أنه يكره حب التملك من أية امرأة.. وكان على جيني أن لا تمرر أصابعها الحمراء الأظافر على ذراعه القوية العضلات، أو أن تناديه بأي اسم تدليل عدا اسمه.. فهي بفعلتها هذه أنهت ذلك الفصل بكل تأكيد كما بدأته.. وهذا ما كانت سيرينا مقتنعة به..

٤ ـ سندريلا والقبطان

بعد وقت طويل من تلك الحادثة وهي تتذكر أسابيع الإبحار السعيدة نحو الشمال أدركت سيرينا أن الصدفة التي دعتهما إلى الرسو إلى جانب يخت يدعى «غولدن» كان مدعاة لأحداث مميزة أكثر مما تصورت يومها.

لم تكن قد قررت في ذهنها ما إذا كان المستقبل تصنعه الصدفة أو القدر.. لكن، مهما كان الأمر، كانت تعرف أن القوى التي توجه مسيرة حياة الإنسان نادراً ما تُعرف على الفور حين تظهر.

كانت تصف تالغة في حرارة الظهيرة في ذلك المكان البعيد داخل مجرى النهر، عندما سمعت صوت جيسكار يناديها للمجيء إليه.

لم يكن لديها أية نية بأن يتعلق مستقبلها به.. على الأقل لفترة ما عندما وصلا إلى «ماريغوت باي» في الساحل الغربي «لسانت لوسيا» وأرشدهما مسؤول الميناء إلى مكان للرسو ملاصق لمركب يدعى «غولدن» لم يكن لدى سيرينا أية أفكار مسبقة أو هواجس بأن صداقتهما مع أصحابه سيكون لها تأثير يجعلها تدوم أكثر من التعارف العابر الذي كانا يجريانه في كل ميناء يزورانه خلال إبحارهما شمالاً إلى أنتيغوا.

كان في «ماريغوت» مركز يدعى «دوليتل» وهو مقهى ومطعم مبني في موقع مثالي قرب الساحل، تحت أقدام تلة شديدة الانحدار مكسوة بالأشجار.. وهناك أيضاً محل ألبسة ومحل بقالة بالإضافة إلى مشغل بحري ومكان لتشميع اليخوت. هذه التسهيلات المتوالفة مع الموقع الطبيعي المحمي بالخليج جعلت «ماريغوت» مرسى ممتازاً، مع أن سمعتها بين بعض أصحاب اليخوت معروفة بسرقة اليخوت.

لم يكن أصحاب المركب غولدن على متنه عندما رسى جيسكار بمركبه. لكنهم عادوا فيما بعد، وهما زوجان قدّما نفسيهما باسم مايك وساندرا سوان.. وكانا كنديين صحيح أنهما ليسا صغيرين، إلا أنهما مليئان بالطاقة الجسدية والشخصية الدافئة والمنطلقة.. كانا في إبحار دائم منذ سنتين أي منذ تقاعد مايك الزوج حيث باعا منزلهما في كندا، وهما يبحثان عن منزل آخر في الشمس كضمان لهما عندما يعجزان عن العيش على متن المركب.

قال مايك بعد دعوة الوافدين الجديدين إلى مركبه:

ـ الآن سأخبرك أمراً أظنه سيثير اهتمامك جيسكار.. لقد كنا نبحث عن منزل نشيده هنا، وعرفنا أن معظم هذا الخط الساحلي من البحر حتى مسافة طويلة إلى الداخل، يُعرف بما يسمى السلسلة الملكية. وأن كل من يرغب في البقاء هنا عليه استصدار إذن خاص من جلالة الملكة اليزابيت الثانية.

وهذا ما قاده للكشف عما للجزيرة وما عليها كمكان للاستقرار وربما لأن زوجته سمعت هذا الحديث من قبل وهي تعلم أنه لن يهم سيرينا التفتت نحو سيرينا وبدأت معها حديثاً منفصلاً..

كانت امرأة «بيتوتية» تحب منزلها وتصنع الخبز بنفسها وهي على متن المركب في البحر بوضعها العجين في كيس بلاستيكي ليخمر بسرعة. بعد أن تحدثت مطولاً عن الطهي تحولت للحديث عن التطريز في المكسيك وأميركا الوسطى التي زاراها وهما يشقان طريقهما حول ساحل الكاريبي الشرقي.

بينما كانا على متن مركبهما فيما بعد. قالت سيرينا:

ـ لقد أحببت جارينا.. ألم يعجبك؟ لكن وجودي كأخت لك يجعلني غير مرتاحة.

رد عليها: حاولي النظر إلى الأمر من وجهة نظرهما.. إنهما من الجيل الذي لا يستطيع الموافقة على عيش الشبان معاً دون أي ارتباط زوجي.. وإن علما بأننا غير مرتبطين بالقربى سيجرح هذا مثلهما الأخلاقية أكثر مما تسيء أية خديعة إليك.

سألت: ألا يتزوج أحد الآن؟

لا تزال مقاييس التصرف الأخلاقي المعاصر لغزاً بالنسبة لها. لم تكن قادرة على إيجاد الصلة بين الحب الرومانسي الذي يتجسد بالشعر والقصص الكلاسيكية، وبين ما يرد الآن في الكتب الحديثة والصحف التي قرأتها مؤخراً.

قال جيسكار بلهجة باردة:

ـ لا يزال الناس يفعلون هذا، لكن الزواج السريع قد يكون غلطة مدمرة.

ـ وهل تزوجت من قبل؟

كان هذا السؤال الأول الحميم الذي تطرحه عليه، وكانت نصف خائفة من أن يصدها. لكنه قال فقط بضغينة غريبة:

ـ لا. فأنا أكثر ذكاء من أن ألزم نفسي بمثل هذه السخافة.

سألت: لو أطلعنا الزوجين سوان على الحقيقة أتظن أنهما سيصدقاننا؟

ـ قد يصدقان وقد لا يصدقان. وأنا أفضل ألاّ أخاطر بالأمر.

ـ ألا زلت أبدو صغيرة جداً؟

ـ ليس كما كنت، لكنك لا زلت صغيرة للتورط مع رجل في مثل سني.

ـ كم عمرك جيسكار؟

ـ كبير جداً بالنسبة لك في نظر آل سوان. لذا ومهما تعارض هذا مع تفضيلك للحقيقة، سنستمر بالتظاهر في الوقت الحاضر.

تلك الليلة تناولا العشاء في «دوليتلز» حول طاولة مضاءة بالشموع في الهواء الطلق تطل على البحر المتلألىء بنور القمر الرائع.

بينما كانت سيرينا تبحث مع جيسكار لائحة الطعام، وصلت مجموعة من السواح في عبّارة رست على الشاطىء الجنوبي حيث تصل الطريق إلى عاصمة الجزيرة «كاستيريز»..

كان كل الوافدين الجدد يرتدون ملابساً رسمية جداً، والفتيات يرتدين آخر صرعة في عالم الأزياء. نظرت سيرينا إليهن مذهولة بملابسهن

وشعرهن وزينتهن مع أنها لم تفكر كثيراً بشكل الشبان.. الذين تركوا الفتيات يجلسن وحدهن دون أن يمسكوا لهن الكراسي كما يفعل جيسكار دائماً معها..

لا شك أن أفكارها المنتقدة انعكست على وجهها، فسألها جيسكار محاولاً قراءة أفكارها:

ـ هل تتمنين لو كنت متأنقة مثلهن؟

ـ أوه.. لا! لم أكن أفكر بهذا.. مع أنني أُعجبت بملابسهن خاصة ذلك الفستان الأحمر.

ـ إذن لماذا العبوس؟

ـ لأن الشبان يبدون غير لائقي التصرف وسيئي الأخلاق.. أنت تعامل حتى أختك أفضل من هذا.

نظر إلى المجموعة مفكراً وقال بخشونة:

ـ ربما سيكونون أكثر لياقة لو أن صديقاتهم أكثر أنوثة.

ردت بحيرة: لكن بكل تأكيد لا يمكنهن أن يكن أكثر أنوثة من هذا.

ـ الأنوثة هي أكثر من فساتين مكشوفة الكتفين وكعب مرتفع وأظافر طويلة وماكياج ثقيل.. الفتيات اللواتي يتنهدن وكأنهن التنين ويصدرن أصواتاً كتلك الشقراء لا يشجعن المعاملة الشديدة الأناقة.. تعجبني ضحكتك وتعجب الكثير من الرجال الآخرين.

احمرّ وجهها سعادة لهذا الإطراء المعبر، وتمتمت متسعة العينين: حقاً؟

أعطى ضوء الشموع وجهه الأسمر لمعاناً كلمعان البرونز فوق الخدين المرتفعين المشدودي البشرة والأنف المتشامخ. وكما كانت تصرفاته تختلف عن تصرفات الشبان المرافقين للفتيات كذلك مظهره وجلسته، فجسده متكامل دون لحم زائد وجلسته جلسة واثق من نفسه وليست مترهلة فوق كرسيه..

سألها: هل قررت ماذا ستأكلين؟

أذهلها تقديره لها وقالت:

ـ أوه.. اختر أنت لنا معاً.. أتسمح؟

طلب حساء اليقطين الذي قدم لهما مع الخبز المعجون بالموز، وتبعه دجاج ماريغوت الذي يختص به المطعم مع الباذنجان الأبيض.. ثم حصلت على آيس كريم كحلوى مطيب بعصير الفاكهة.. لكنها تمنت لو شربت القهوة مثل جيسكار.

سألها: هل الطعام جيد؟

ـ لذيذ.. شكراً لك.. أنا لا زلت أحاول زيادة وزني.

ـ لكنك لست نحيلة كما كنت.

كانت كلماته ولهجته كما لو أن طبيباً يتحدث إلى مريض فقد وزنه.. وكان من المستحيل التصديق أنه قد أبدى إعجابه بها.

قبل أن تذهب إلى الفراش تلك الليلة أمضت وقتاً طويلاً تتفحص انعكاس صورتها في المرآة المثبتة على الجدار الخشبي.. لم تستطع منع نفسها من الإحساس بأن الوجه الذي تراه قد تحسن كثيراً للمسة الماكياج الخفيفة.. لكنها لا تملك المال كي تشتري أدوات للتجميل، ولا يمكنها أن تطالبه بالمال خاصة وأنه قدّم الكثير لها حتى الآن.

فكرت لو تحصل على عمل يكسبها بعض المال! في الليلة التالية تناولا العشاء مع الزوجين سوان على متن «غولدن» وتطوع الرجلان بعد الوجبة الممتازة بغسل الصحون، وأحضرت ساندرا سوان علبة تحتوي على نماذج من التطريز الذي تكلمت عنه في اليوم السابق. النموذج الذي أثار اهتمام سيرينا كان من نوع «مولا» الذي قالت السيدة سوان إنه من عمل هنود جزيرة «سان بلاس» قرب «باناما». كان النموذج قطعة قماش مستطيلة المقصود منها أن تخاط إلى مقدمة بلوزة وأخرى من خلفها..

تفحصت سيرينا طريقة التطريز.. جعلتها محلات الأزياء تتعرف على الأشكال التزينية المقصوصة، وقطب الآلات للتنانير وحقائب الشاطىء.. هذا التطريز كان عملية عكسية.. عدة طبقات من قماش براق تخاط معاً عبر عدة طبقات كل منها مطوي ومخيّط من تحت لإظهار اللون الذي يليه.

في اليوم الثالث في «ماريغوت»، وبعد شراء وجبة «موساكا» من اللحم والباذنجان والبصل، نصحتها بها السيدة سوان من محل البقالة.. جالت سيرينا لإلقاء نظرة على محل ألبسة جاهزة قريب للتفرج على ملابس

العطلات والتذكارات. فيما بعد وهي تعود مجذفة إلى المركب، خطر ببالها أنها مع بعض بقايا قطع القماش التي أعطتها لها ساندرا سوان قد تتمكن من استخدام تقنية «المولا» لصنع ثياب قد تشتريها محلات بيع الثياب.

أثارتها الفكرة كثيراً بحيث أنها أمضت نصف ليلها تقص وتخيّط في نشاط إبداعي محموم. كان عملها هذا أمتع من أي عمل قامت به منذ سعادتها التي كانت تشعر بها عندما كانت تخيط ثياباً لألعابها.

ما إن استيقظت في الصباح التالي حتى تذكرت على الفور أن مشروعها لم ينته بعد ويتطلب بعض الاهتمام كي ينتهي.. فعمل ليلة أمس الذي كان ملقياً فوق خزانة الأدراج ليس بالجودة التي أملت أن تحققها، لكنه ليس سيئاً أبداً كمحاولة أولى. فيما بعد عرضت عملها على ساندرا التي أثنت على عملها بتقدير وتشجيع.. لكن سيرينا لم تخبر جيسكار بما صنعت لأنها أرادت أن تثبت أن عملها يمكن بيعه قبل أن تفشي له السر.

انتقلا من «ماريغوت» إلى «كاستريز» حيث أمضيا فيها بضعة أيام، وهناك مرّت بتجربة محبطة عندما قيل لها إن عملها اليدوي جيد، لكنه غير مقبول بالكمية القليلة التي أنتجتها حتى الآن. وقال مالك أول محل هدايا زارته:

ـ أحضري لي دزينة من حقائب الشاطىء هذه بألوان وتصاميم مختلفة، عندئذ نستطيع أن نعمل معاً.

حاولت بيع بعض لوحات أبيها بشجاعة لكنها صدمت عندما هز البائع رأسه رافضاً مع أنه كان لبقاً في رفضه.. ثم بعد أن علم بأنها ليست عملها هي قال: «بصراحة إنها لوحات غير متقنة».

ولم يكن هذا الرأي رأيه وحده ففي كل الأمكنة التي عرضت فيها اللوحات قيل لها الشيء عينه وهذا يعني أنّ عمل أبيها لم يكن أفضل أبداً من ألف هاوٍ منافس..

كان هذا ضربة مؤلمة لها أكثر مما لو قيل هذا عن عملها.. لأنها كانت تعتمد على بيع هذه اللوحات حتى تردّ دينها لجيسكار.. دين ازداد الآن بالمبلغ الذي دفعه للوحات لم يرغب بها حقاً لكنه اشتراها كعمل

خيري.

عندما واجهته بالأمر اعترف أنه لم يتأثر بموهبة أبيها.. فتمتمت باكتئاب:

ـ لكن كيف سأتمكن من إيفاء دينك؟

ـ بأن تعملي لي دون أجر عندما أعود لتأجير مركبي مرة أخرى.

ـ ومتى سيكون هذا؟

ـ عندما أصل إلى انتيغوا.

تهلل وجه سيرينا:

ـ أتعني أنني أستطيع البقاء معك؟ ألن ترسلني إلى انكلترا؟

ـ لا لن أفعل طالما أنت مفيدة لي، ولا تتوقعي أن أدفع لك.

ـ أوه.. لا! سأكون سعيدة بالعمل لديك..

ـ ليس دائماً يا فتاتي.. ستمرين بأوقات سيئة لكسب معيشتك ولن تكون نزهة طوال الوقت وسترين.

أبحرا من سانت لوسيا إلى «المارتينيك» وهناك اكتشفت أن جيسكار يتحدث الفرنسية بطلاقة، حيث أقاما عدة أسابيع تمكنت خلالها من إكمال عمل الإبرة وبيع بعضاً منه. لكن عندما عرضت على جيسكار المال الذي اكتسبته، رفض أخذه قائلاً لها بأن تبقيه معها كمصروف خاص بها.

التقت سيرينا في «دومينيكا» بكارولين سيتوين.. تعارفا عن طريق ابنة كارولين الصغيرة التي مدت يدها السمراء الصغيرة وهي معلقة في حمالة ظهر على طريقة الهنود الحمر على ظهر أمها، لتمسك عقداً من الخرز اللماع المصفوف فوق شريط عريض ولماع بشكل علاقتين لكتفي فستان سيرينا الصيفي الذي نسخته عن فستان شاهدته في محل ألبسة مخصص للسواح الأثرياء.

شعرت سيرينا بمن يشدها بفستانها من الخلف، فاستدارت وابتسمت للطفلة الواقفة أمها قريباً منها عند منصة بيع فاكهة.. وقالت بنعومة للطفلة الصغيرة:

ـ مرحباً طفلتي.. هل أعجبتك خرزاتي؟ هل هي جميلة؟

قالت المرأة التي تحمل الطفلة وهي تنظر من فوق كتفها:

ـ لا.. لا الينذرا.. اتركيها! أوه يا عزيزتي، أنا آسفة جداً.. هل تستطيعين نزع يدها عن الشريط؟

تمكنت سيرينا بصعوبة من تخليص نفسها من قبضة الطفلة، وقالت ضاحكة لاعتذار الأم:

ـ يا لها من محبوبة! كم عمرها؟

تبع هذا حديث عرفت منه سيرينا أن الطفلة واحدة من ثلاثة أولاد. الاثنين الآخرين في المنزل مع والدهما، والمنزل هو عبارة عن مركب شراعي يرسو في الميناء.

وأكملت المرأة: إنه مقام للعطلة فقط. أشكر الله فمع شدة حبي له لا أظن أنني قادرة على احتماله بشكل دائم.. حلم زوجي أن يعيش على متن مركب طوال السنة.. لكننا لا نستطيع هذا بسبب عمله. لذا نأخذ شهر عطلة في الشتاء كل سنة.. هل أنت هنا في عطلة أيضاً؟

ـ لا.. فأنا أعيش على مركب مع.. أخي.. وسنقيم هنا لفترة في طريقنا إلى الميناء الإنكليزي.

ـ الميناء الإنكليزي.. «آنتيغوا»؟ لقد جئنا من هناك. نحن نترك مركبنا «سي ويند» عندما لا نستخدمه هناك، ولدينا وكيل يرتب أمر تأجيره عندما نكون مسافرين ونستخدم أرباح هذا التأجير في عطلتنا، هل تؤجران مركبكما؟

ـ أحياناً.. لكن ليس الآن.

وجدت سيرينا نفسها تساعد كارولين في حمل سلال مملوءة إلى المركب الشراعي، حيث دعتها المرأة إلى التعرف على إيثان ستيوين الضخم البنية والتوأم البالغ من العمر خمس سنوات: كيتان ومينا.. ووجدت أنهم عائلة ساحرة. قالت لها كارولين:

ـ لماذا لا تأتين مع شقيقك لتناول العشاء معنا الليلة؟

كانت متلهفة لقبول الدعوة.

ـ سأحب هذا.. لكنني لست واثقة ما إذا كان لدى جيسكار خطط أخرى.. هل لي أن أسأله ثم أعلمكم؟

ما كانت تعنيه أنها لم تكن واثقة أنه يرغب في قضاء أمسية في جو عائلي كهذا وبين أطفال صغار.

قال إيڤان: جيسكار.. هذا اسم غير عادي.. كنت في المدرسة مع شاب يدعى جيسكار، لكن لم يكن له أخت.. لكن كارولين لم تقدمك جيداً.. ولا أعرف اسم عائلتك.

ردت الزوجة:

ـ آسفة.. إنه فرايزر.

وهو الاسم الذي أعطته لها سيرينا دون تفكير.

فجأة تملكها هاجس أن يكون الرجل الذي يشير إليه إيڤان هو من تشير هي إليه كشقيق لها.. كان يبدو أنه قريب من عمر جيسكار وله ذات نبرة الصوت، وشيء من نفس قوة الشخصية، مثل قبطان الراين الطويل الأسمر والمتسلط.

سألته وهي تحاول أن تخفي اضطرابها فأجاب:

ـ فيذرستون.. جيسكار فيذرستون.. لكن الجميع كان يناديه «جيستون» نسبة لرمز اسمه على ثياب الرياضة.. كان هذا منذ زمن بعيد.. لكنه كان شاباً ممتازاً.. وصديقاً طيباً.. وأتساءل دائماً ماذا حدث له.

قالت زوجته:

ـ ستعرف في يوم ما حين يموت جده العجوز الخرف، ويبدأ محاميه بنشر الإعلانات بحثاً عنه.

ـ أعتقد أن جيستون على الأرجح مات قبله.. كان دائماً يخاطر بحياته.. وأظن أن فرصة نفاذه بعظامه سليمة واحد لمليون.

كان هذا الحديث مربكاً لسيرينا وتاقت لأن تكتشف سبب تسمية كارولين لجد جيسكار «بالعجوز الخرف» ولماذا سينشر المحامي الإعلانات حين يموت ذلك الجد.. رفعت الينذرا التي كانت مكورة في حجرها وقالت:

ـ يجب أن أذهب الآن.. شكراً للقهوة، وسأعلمكما بشأن العشاء، في أسرع وقت ممكن.

أخذت تتساءل ما إذا كان جيسكار يرغب في رؤية صديق من أيام دراسته وهي تسير عائدة إلى «الرين» حاملة سلتها.. أم أنه قد يفضل تجنب أية صلة له بحياته الماضية.. كما تجنب الإشارة إليها.

***

لم يكن جيسكار على المركب عندما وصلت سيرينا فشغلت نفسها بتحضير الغداء.. لكن مع أنها كانت منهمكة بتحضير الغداء إلا أنها لم تستطع منع نفسها من القلق في حال غضب جيسكار منها لتعرفها على أشخاص يفضل عدم اللقاء بهم.

ما إن سمعت وقع أقدامه على سطح المركب حتى حضرت نفسها لتواجه انزعاجه.. وبما أن تأخيرها بإعلامه سوف يزيد من توترها فما إن وصل إليها حتى أسرعت بإخباره دون إضاعة للوقت:

ـ جيسكار.. أنا آسفة جداً.. لقد حدث أمر قد لا يعجبك.

ـ أوه؟ ماذا فعلت؟ هل أنفقت مصروف المنزل على فستان لم تستطيعي مقاومته؟

ـ لا.. طبعاً لا!

ـ إذن هيا قولي ما هو! أي جرم ارتكبته؟

ـ لم أفعل شيئاً في الواقع.. عدا أنني تورطت في حديث مع امرأة اتضح لي بأن زوجها كان يعرفك.

أجفل وبدا القلق فجأة في عينيه:

ـ كان يعرفني؟ أين؟

ـ في المدرسة.. أو هكذا يقول، عدا أنه لا يعرف بعد أن أخي «جيسكار» هو نفس صديقه القديم جيستون.. أترى؟ زلّ لساني وقلت إن اسم عائلتي فرايزر.. لذا فهو يظن اسمك جيسكار فرايزر، وطلبت مني زوجته أن أدعوك إلى العشاء معهما.. قلت إنني سأستشيرك أولاً، لذا أستطيع بسهولة أن أعتذر.. ويمكننا الرحيل من هنا قبل أن يراك.. فأنا لم أذكر اسم مركبنا.

نظر إليها مفكراً للحظات قبل أن يقول:

ـ ولماذا أفعل هذا سيرينا؟ لماذا أغادر على عجل لأترك انطباعاً بأنني لا أريد أن يعرف الناس شيئاً عنك؟ عن كونك.. لغزاً؟

اعتمت عيناها الخضراوان بالإثارة وهما تتفحصان وجهه الأسمر النحيل.. وسألت بارتياب:

ـ أهذا هو الأمر فقط؟

ـ وما يكون غير هذا؟ أكنت قلقة من أن تكتشفي أنك علقت مع رجل هارب؟

أسبلت رموشها قائلة:

ـ لا شك أن هناك حالات لأشخاص فعلوا شيئاً ندموا عليه وجعلهم منبوذين.. كأولئك الرجال في المستعمرات القديمة.

ـ لم تكن تلك حالات كثيرة كما أتصور.. وليست بالتأكيد حالتي... أنا في الواقع نذل غير مناسب لأكون أحد الأبطال.. هل كان ذلك الرجل إيڤان ستيوين؟

ـ أجل.. وكيف عرفت؟

ـ لقد علمني والده الإبحار عندما أقمت معهم.. العائلة كلها مجنونة بالإبحار.. ولا يدهشني أن أجده في مكان كهذا. ما شكل زوجته؟ لقد أعجبتك على ما أعتقد؟

ـ كارولين؟ أجل.. أوه.. كثيراً.. ولها ثلاثة أطفال محبوبين.

ـ أوه يا إلهي! إيڤان أصبح أباً الآن! كم أن هذا غريب!

ـ إذن نستطيع قبول دعوتهما؟

ـ بكل سرور.. يعجبني الأمر كثيراً.. أين يرسوان؟ سأذهب لأحييهما الآن.

أخبرته سيرينا بالمكان، وأضافت:

ـ وكيف ستشرح لهما من أنا؟

ـ ببساطة.. سأقول الحقيقة. لا تنتظريني للغداء «تشيكا» فقد نتسلل أنا وهو إلى المقهى هرباً من مركبه إن كان مليئاً بضجيج الأطفال.

كان هذا بداية لتحول الأحداث التي أسعدتها وأراحتها.. مع ذلك أحست أنها مهجورة وحيدة وهي تتناول الغداء وحيدة.

سمعت من يناديها باسمها فأطلت من فتحة السلم فوجدت كارولين على الرصيف وسألتها باسمة:

ـ أيمكن أن أصعد لنتحدث؟

ـ أرجوك اصعدي.. أين الأولاد؟

ـ إنهم مع الرجلين.

ـ قال جيسكار إنهما قد يذهبان إلى مكان ما.

ـ لا.. إنهما يجالسان الأولاد ويستعيدان ذكريات شبابهما وكأنهما عجوزين في الثمانين.. البندرا نائمة والتوأم يلعبان بكتب التلوين.. مع أن هذا لن يدوم طويلاً.. لكن إيڤان سيبقيهما هادئين.. يسرحان على هواهما معي لكنهما دائماً يطيعان أباهما.

جلست على مقعد على السطح، وأكملت:

ـ أيزعجك أن أحيك الصوف؟

ـ ولماذا يزعجني؟

ـ كنت أعتقد أن الحياكة هي استسلام لبوادر الشيخوخة، الآن أجد أن الحياكة مرضية جداً.. مع انني لا أستطيع التركيز على نموذج معقد إلا عندما ينام الأولاد.

أخرجت كارولين صوفاً من الموهير الأحمر وبدأت بحياكته.

ـ إن كنت ستحيكين فأنا سأقوم ببعض الخياطة.. سأذهب لأحضر حقيبة العمل.

تحدثتا عن الثياب لفترة بعد إحضارها سلة العمل الخاصة بها. ثم بعد وقت قصير بينما كانت كارولين تُقطب، قالت:

ـ لطالما تحدث إيڤان عن جيستون.. أعني جيسكار، وكذلك والدة إيڤان.. كان لديها نقطة ضعف حياله.. يجب أن أكتب لها لأعلمها كم هو لطيف.. وبأنه لم يعد قاسياً أو منعزلاً الآن بعد أن كبر.. بل أنه أصبح أكثر سحراً في الواقع.. أظنها كانت دائماً تخشى أن يتحالف مع الشيطان.. كما يقول جيلها.. لذا ستكون مسرورة ومرتاحة لسماع

أخباره الجيدة.

ـ ولماذا فكرت أنه قد ينحرف؟

ـ يبدو أن بداية حياته كانت أكثر بؤساً من أي شخص آخر.. كان أبوه مستهتراً ومقامراً أنكره أبوه لزواجه غير المتكافىء اجتماعياً.. زارتهما حماتي مرة أعني والدي جيسكار ولم تكن الزيارة بدافع الفضول فهي لم تكن تعرف شيئاً عن خلفياتهما الاجتماعية.. لكنها ذهبت لترد كنزة نسي أخذها معه بعد عطلة معهم.. كانت تعرف أن منزله في منطقة فولهام، حصلت على العنوان من الكلية.. عندما وصلت كان والده يقامر وأمه تحولت إلى امرأة سيئة السمعة.. ولولا جدة جيسكار التي كان لديها مالها الخاص لتدفع لتعليمه لكبر دونما احترام لنفسه بسبب أبويه وشجارهما المستمر.

تمتمت سيرينا: فهمت.. لم أكن أعرف هذا.

إذن هذا هو سبب رفض جيسكار العنيد أن يتورط مع أبيها لأنه كان يلطخ نشأته رجل مقامر وفاسد كأبيها.. قالت وكأنها تكلم نفسها:

ـ أتساءل ما إذا كان لا يزال حياً؟

ـ والد جيسكار؟ لا.. لا.. لم يعد حياً.. نُشر خبر وفاته في الصحف بعد زواجنا.. كنا نعيش مع أهل إيڤان يومها، وأذكر أن حماي قرأ الخبر على مائدة الفطور. ولو أنه مات لأسباب طبيعية لمر الخبر دون أن يلحظه أحد.. لكنه مات بسبب سيارة صدمته.. وجرى تحقيق عُرف منه مع أنه معروف باسم السيد فيذرستون إلا أنه في الواقع كان «اللورد روكفورد» وريث «كريبتون».

رفرفت سيرينا بدهشة بعينيها:

ـ لورد روكفورد؟ كريبتون؟

ـ ألا تعلمين؟ أوه ولماذا تعرفين حقاً؟ لا أظنه فكر بهذا يوماً بعد إنكار جده له ودون ذنب مباشر منه.. ولقد جاء الآن دوره لإنكار العجوز.. ربما خلال وجوده كل هذه السنوات خارج بريطانيا لم يعرف بأن أباه مات.

استغرق تقبل سيرينا لفكرة أن جيسكار هو ابن لورد إنكليزي وقتاً

طويلاً، حتى ولو كان الأب مقامراً وتزوج ممن هي أدنى منه مرتبة. وسألت باندهاش:

ـ لكن كيف يمكن لأبيه أن يكون اللورد روكفورد، إذا كان والده على قيد الحياة؟

ـ لأن العجوز ماركيز.. إنه اللورد كريبتون.. واللورد روكفورد هو لقب وريثه.. إنه عجوز جداً الآن في التسعين من عمره، في الأصل كان له ثلاثة أولاد.. لكن الكبيرين قتلا في الحرب العالمية الثانية.. كان اللورد كريبتون دائماً غريب الأطوار وأرسله حزنه على ابنيه في دوامة.. وأعتقد أن كريبتون في أيام أبيه كانت ضخمة جداً وكان الملك ينزل فيها مع بطانته أحياناً.. لكنها الآن خربة كما أسمع. يعيش هناك وحده مع خادم عجوز، ولم تجر أية إصلاحات في القصر منذ وفاة زوجته وإن بقي على قيد الحياة بعدها فسيتعرض قصره للهدم إن لم يقم بترميمه.. وربما هو هكذا الآن.. القصور الكبيرة تتهاوى مهترئة أسرع من المنازل العادية.

سألت سيرينا والقلق بادٍ على وجهها:

ـ عندما يموت جده.. هل يجب على جيسكار أن يعود؟

ـ لن يكون مضطراً.. لا.. ومن سيجبره؟ أتصور أن هذا سيعتمد على ما يوجد من أموال وما إذا كانت موروثة.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ ثروات بعض العائلات الكبيرة لا يمكن تركها سوى للورثة. إنها طريقة لحمايتها.. لكن عندما لا يكون المال موروثاً، يمكن تحويله إلى ملاجىء للقطط، أو إلى ابن عم بعيد.. وهذا بالضبط ما يمكن للعجوز أن يفعله كي ينتقم فقط. لكن حتى ولو فعل هذا.. ستطالب الدولة بمبلغ كبير كضريبة وفاة.. لذا لن يكسب جيسكار كثيراً في الحالتين.

رأت القلق في عيني سيرينا وقالت بابتسامة مطمئنة:

ـ لقد شرح لنا كيف أصبحت تحت جناحه.. وأنا واثقة أن لا ضرورة لخوفك من أن يسافر فجأة إلى انكلترا ويتركك وحيدة مرة أخرى.. لقد

تحدثت كثيراً.. والآن أخبريني شيئاً عن نفسك.

هكذا تحدثت سيرينا لوقت قصير عن تاريخها.. عندما توقفت قالت كارولين:

- أنت وجيسكار لديكما أشياء كثيرة مشتركة.. ويجب أن تفهما بعضكما أفضل بكثير من أي واحد كان سعيداً في طفولته.

- ربما.. لكن الفرق بيننا أنه متعلم جداً وأنا لم أتعلم. ألم يكن مع زوجك في مدرسة واحدة؟

لم يدهشها سماع أن الرجلين كانا صديقين في المدرسة الابتدائية ثم درسا لخمس سنوات في إحدى المدارس الإنكليزية الشهيرة العامة وقالت سيرينا:

- أتصور أن اللايدي كريبتون هي التي تركت له «مطر الألماس» الذي باعه فيما بعد ليشتري المركب. تكلم عنها كسيدة عجوز.. لكنني أعتقد أنها لا يمكن أن تكون سوى جدته.

لم يطل الوقت بعد هذا الحديث حتى عاد جيسكار فعادت كارولين إلى مركبهم وحيتهما بحبور:

- أراكما فيما بعد..

عندما عاد جيسكار من لقاء صديقه مجدداً كان في مزاج شارد. ولم تتطفل سيرينا على أفكاره فقد كان لديها الكثير مما يشغل تفكيرها هي أيضاً.

لم تستطع التجاوب معهم تلك الليلة على العشاء على متن «السي ويند» ورغم جهود الثلاثة لإشراكها في الحديث، لأنها تعي أن لديهم أشياء كثيرة مشتركة لا تعرف عنها شيئاً.. فسنوات نفي جيسكار الاختيارية من وطنه لم تكسر الرابط الذي كان بينه وبين إيڤان.. كانا تقريباً كأخوين طال انفصالهما لكنهما لا زالا مترابطين بروابط قوية منذ مولدهما.

أحست أنهما وبسبب وجودها بينهما كانا يتكلمان أكثر عن تلك الأيام.. وكانت كارولين أيضاً تشاركهم في ذلك الحديث، فشقيقها الأكبر كان أحد زملائهما في المدرسة.

شعرت بأن جيسكار أحس بمشاعرها.. سار في طريق عودتهما إلى

مركبهما ويده على كتفها.. وكانت تعرف أن هذا لا يزيد عن كونه دلالة صحبة.. مع ذلك واستها.

كانت عائلة سيتوين قد بدأت إجازتها مؤخراً.. هكذا وفي الأيام التي تلت أمضى الأربعة وقتاً طويلاً معاً.. صباح أحد الأيام وخلال أسبوع من جمع شمل الرجلين استيقظت سيرينا ووجدت علبة كرتون كبيرة فوق خزانة أدراجها لم تكن هناك في الليلة السابقة.. على جانب العلبة يلتصق مغلف، اسمها عليه. في داخل المغلف وجدت بطاقة معايدة.. لا شك أن جيسكار قد تفحص أوراقها الرسمية قبل أن يخبئها مع أوراقه المهمة والآن تذكّر تاريخاً نسيه والدها منذ زمن طويل.. منذ سنوات طويلة لم يمر عليها عيد ميلادها وكأنه يوم مختلف عن أي يوم آخر من السنة.

ارتجفت أصابعها تأثراً ولهفة.. وفكت رباط العلب الكرتونية وشهقت بغبطة عندما عرفت محتواها وهي آلة خياطة في علبة منمنمة دقيقة يمكن نقلها.

- جيسكار! جيسكار!

خرجت من قمرتها وهي تصيح.. ووجدت أن فتحة الباب إلى السطح الأعلى مقفلة وهذا يعني أنه في الأسفل، فأسرعت إلى المطبخ ثم إلى باب قمرته. رفعت يدها لتطرق الباب فأطل برأسه من غرفة الغسل ذقنه نصفها مليء بالرغوة والآخر أملس محلوق.

- أوه.. هذا أنت.. شكراً لك.. شكراً لك!

ركضت إليه لكنها توقفت عندما انسحب إلى الداخل.

- توقفي.. أنا لا أرتدي ملابسي.

انتظرت في الممر إلى أن خرج إليها وهو يلف نفسه بمنشفة على خصره النحيل وهو يقول باسماً:

- أتمنى العديد من الأيام السعيدة كهذا اليوم.

قبل لحظات كان انفعالها شديداً حتى أنها كانت ستهرع إليه معانقة. لكن التوقف القصير كبح ذلك الاندفاع، فبقيت حيث هي غير قادرة على التعبير عن فرحها المتزايد وعرفانها بالجميل وتصاعدت غصة في حلقها

وترقرقت عيناها بالدموع.

ما إن انهمرت الدموع حتى صاح متعجباً:

ـ يا فتاتي العزيزة.. ما الأمر؟

هزت رأسها باكية غير قادرة على القول إنه ليس هناك أي شيء خاطىء وان سعادتها هي التي تغلبت على سيطرتها على نفسها وعادت راكضة إلى غرفتها، فهي غير معتادة على إظهار مشاعرها وخائفة من أن تحرجه.

انتزعت منديلاً ورقياً ومسحت الدموع السخيفة ووسط ارتباكها ودهشتها لحق جيسكار بها.

أدارها لتواجهه وبداء دافئتان وثابتتان على كتفيها فوق «الساري» الذي ترتديه.

قالت شاهقة:

ـ أنا آسفة.. لا بد.. أنك تظنني مجنونة لأنني أبكي بسبب أنك أهديتني.. تلك.. تلك الهدية الرائعة التي لم أتلقَّ مثلها في حياتي.

ـ لكنه يبدو رد فعل غريب.

لم يرتبك في طريقة ضمها إليه وهو يربت شعرها الحريري الكثيف المشعث دون تمشيط.

لم تدم تلك اللحظات غير المتوقعة بين ذراعيه طويلاً، لكنها جعلتها تحسد كارولين لأنها تتمكن دائماً من اللجوء إلى ذراعي إيڤان عندما تكون مكدرة ومحبطة. كان ضمه لها مريحاً في البداية، وبعد لحظات أثار فيها إحساساً مختلفاً.

لم يكن لديها الوقت الكافي لتحليل هذه المشاعر الغريبة قبل أن يبعدها جيسكار عنه قائلاً بلطف:

ـ لا واجبات عليك اليوم يا زميلة الإبحار.. ما إن أنهي حلاقتي حتى أحضر لك الفطور.. ماذا تحبين؟ بيض ولحم؟

كان قد اختفى عن نظرها عائداً إلى غرفة الغسل وهي ترد على اقتراحه: أجل.. أرجوك.

ثم أخذت تتفحص هديته عن كثب وتقرأ كتيّب التعليمات.. وبينما

هي كذلك عرفت أن شيئاً ما قد تغيّر.. فالعالم اليوم أصبح مختلفاً عن عالم الأمس.. ولا يمكن أن يكون هذا فقط لأنها ستنام الليلة وعمرها سبعة عشر عاماً، لتستيقظ وعمرها ثمانية عشر.

في اليوم السابق لعودة عائلة سيتوين إلى «انتيغوا» خرجوا جميعاً في نزهة على «السي وبند» إلى شاطىء كان لهم وحدهم وكان يوماً من أسعد الأيام انتهى بذهاب الأربعة الكبار إلى العشاء في فندق تاركين الأولاد في رعاية أرملة تعيش على الجزيرة كانت كارولين قد أوصلت لها رسالة تعارف من صديقة لأمها في لندن.

وكي تكون المناسبة مثيرة لسيرينا وبعد أن هُيّء لها منذ أسبوع كان لا بد من فستان جديد ترتديه قماشه كان هدية من كارولين التي قالت عندما اعترضت الفتاة على كرمها:

ـ لقد كنت مدللة تماماً طوال حياتي بداية على يد أهلي والآن على يد إيڤان.. فدعيني أشاطرك القليل من حسن حظي.. لحظة رأيت القماش عرفت أنه مناسب لك.. لونه أخضر وذهبي كلون عينيك تماماً.

كان القماش هندياً وقد صنع ليرتدى «كالساري»، وفي أحد أطراف القماش الحريري الأخضر الشفاف حاشية عريضة، محاكة بخيوط ذهبية.

في وقت متأخر من بعد الظهر، بعد أن انتهت النزهة وعاد كل إلى مركبه، استحمت سيرينا فوراً كي تستطيع تجفيف شعرها في شمس آخر ساعة من المغيب.. العيب الوحيد في ترقبها السعيد كان أن حذاءها لم يكن مناسباً للفستان. لكن وبما أنها لن ترقص ولا تعرف كيف فقدميها ستكونان دوماً تحت الطاولة وعلى الأرجح لن يلاحظ أحد أن ما يلزم الفستان هو حذاء ذهبي، لا أحمر.

عندما عاد جيسكار خطر ببالها أن تسأل إلى أين ذهب. ربما لأنه كان يحمل في يده كيس بلاستيك نزل إلى محل البقالة ليشتري بعض علب المرطبات. لكنه سألها وهو يصعد المركب بخفة لم تفشل أبداً في إثارة دهشتها في شخص بمثل طوله وحجم جسده.

ـ هل جف شعرك؟

ـ تقريباً.

ـ جربي مقاس هذه.. ساندريلا.

ركع على ركبتيه بحركة رشيقة إلى جانبها يفرغ من الكيس ما بدا واضحاً أنه علبة أحذية، فشهقت: جيسكار!

رأت حذاء السهرة الفاخر الذي أخرجه من الصندوق.. كان من طراز كلاسيكي بحزامين متقاطعين مثبتين في مكانهما عند الباهم بشريط ضيق ذهبي من الجلد مزين بخيوط لامعة.. جعلها ارتفاع الكعبين تتساءل كيف ستتمكن من السير بهما.

شهقت بفرح وخوف معاً:

ـ أوه.. إنه رائع.. لكن.. كم كلفك؟ أنا واثقة أنك لا تستطيع حقاً تحمل ثمنهما.. ولا يجب أن تبذر مالك عليّ.

أجاب بخفة وهو يدس فردة الحذاء الأيسر في قدمها.

ـ السيقان الجميلة تستحق حذاء جميلاً.

كبحت سيرينا اندفاعاً كي تنحني لتضع خدها على الرأس الأسود المحني لربط الحزام المذهب للحذاء.

لكنها قالت بصوت أجش: شكراً لك جيسكار.. إنه حذاء رائع لفستاني الجديد.. فطنة منك أن تذكر مقاس قدمي.

استقام: لقد تأكدت من المقاس بحسب حذائك الأحمر.. وقالت البائعة إنها ستبدله إن لم يناسبك.. لكنه يبدو ممتازاً.. حاولي الوقوف به.

ـ كان يجب أن أدهن أظافر قدمي.. أتبدو تلك التي زال الدهان عنها غريبة؟

ـ إنها تبدو كما يجب أن تكون أظافر قدمي الفتاة ولا تبدو كما يجب أكثر الأوقات.. معظم الأقدام من الأفضل تخبئتها.. لكن قدماك لم تفسدا بعد بإجبارهما على ارتداء مقاسات غير مناسبة.

حاولت سيرينا السير بضع خطوات ثم استدارت وترنحت فتمسكت بذراعه. أمسك مرفقها قائلاً:

ـ لديك توازن طبيعي جيد.. وسرعان ما تعتادين عليها.

ـ مدهش كم أحس بالارتفاع.. إذا كانت ثلاثة إنشات تشكل كل هذا الفرق فكيف يبدو العالم من نقطة ارتفاعك؟

كانت لا تزال أقصر منه بإنشات ونظر إليها مبتسماً.. جعلها شيء ما في تعابير وجهه تشعر أنها صغيرة جداً وساذجة.. فجأة أرادت أن تفهمه أنها لم تعد طفلة. الاندفاع الذي كبحته يوم أهداها آلة الخياطة تصاعد مجدداً ولم يعد بإمكانها منعه.

نسيت أنه من المفروض أن يكونا أخاً وأختاً ودون أن تهتم بمن يراهما قطعت المسافة القليلة بينهما بسرعة ولفت ذراعيها حول عنقه.

ـ حبيبي جيسكار.. أنت طيب جداً معي.

أطبقت ذراعاه حولها لحظة وضمها إليه بقوة أثارتها وأخافتها معاً.. كانت تخشى قوة الرجل المتفوقة لسنوات طويلة.. ومع أن من يضمها إليه كان جيسكار الذي تعرفه وتثق به وأن العناق هي التي بدأت به، إلا أن ردة فعلها الغريزية كانت في تصاعد المقاومة.

قال: أنت على الرحب والسعة.

ودفعها عنه متعمداً بشكل لا لبس فيه.. تنحى جانباً ليمر من أمامها:

ـ حان وقت استحمامي.

عندما اختفى في الأسفل جلست سيرينا ولبست الحذاء الذهبي محدقة بلمعانه دون أن تراه. لماذا لم يعانقها؟ هل جعلت من نفسها حمقاء بأن طلبت عناقه؟

دفعها عنه دون أي ارتباك لأنه لا يريدها هي.. وليس من النوع المستغل للفرص.. ربما يفضل أن يسدّ الباب في وجهها ببعض السيطرة على النفس، إلى أن تدخل في حياته المرأة الأكبر منها سناً، والراغبة فيه.

دارت الفكرة في رأسها لعدة دقائق قبل أن تصدمها بمعناها.. في مكان ما.. وخلال الطريق وفي لحظة من المستحيل تحديدها، ازداد إعجابها بجيسكار.. لم يعد مجرد المنقذ لها والحامي.. بل الرجل الذي تحب وتريد البقاء معه إلى الأبد.

لم تخرج من قمرتها إلى أن طرق بابها ونادى:

ـ هل أنت جاهزة سيرينا؟ آن وقت ذهابنا.

www.elromancia.com

ـ لن أتأخر أكثر من دقيقة.

كان ينتظرها عندما انضمت إليه على السطح.. وقال متفحصاً فستانها:

ـ أعجبني الفستان.

ـ شكراً لك.

احمرت خجلاً عندما تذكرت جرأتها منذ قليل وتجنبت النظر إلى عينيه.. لكن بينما كان يقفل المدخل الرئيسي نظرت إليه. بدا أنيقاً في قميص جديد وربطة عنق وبنطلون رائع.

ثم تذكرت إرثه.. ولم يعد من العجب أن يبدو مميزاً.. لأنه بالفعل مميز بالوراثة.

التفت إليها وساعدها على النزول، ثم سارا معاً إلى حيث يرسو «السي ويند» فوجدا آل سيتوين يشربان القهوة مع الحاضنة التي سترعى أطفالهم في غيابهم السيدة لايونز.

قالت كارولين: تبدين مذهلة سيرينا.

أعطاها إيڤان لفافة صغيرة:

ـ هذه هدية مني سيرينا..

ـ هذا لطف منك.. شكراً لك.

انتزعت ورق اللفافة، وتمتمت بسعادة:

ـ عطر فرنسي! أوه.. إيڤان..

خانتها الكلمات لكن وجهها توهج.. فقدم إيڤان لها خده:

ـ ألا أستحق قبلة؟

ـ بل دزينة..

وعانقته دون ارتباك ثم استدارت وضغطت على ذراع زوجته تقول بصوت منخفض:

ـ وشكراً لك على الفستان يا أعز الناس كارولين. كم كنتما لطيفين معي.. هل لاحظت الحذاء؟ إنه من جيسكار.

وما إن شارفت الأمسية على الانتهاء حتى كانت سيرينا ترقص بالكعب العالي الذي خافت حتى من أن تسير به.

كان جيسكار قد أصرّ على اللحاق بالزوجين إلى حلبة الرقص رغم رفضها.. وكالعادة كان على حق.. بعد بضع دقائق تمكنت من تقليد حركات الراقصين الآخرين.. وما إن توقفت الموسيقى حتى كانت قد بدأت بالاستمتاع بالرقص.

ادعى إيڤان أنه يرقص فقط لإسعاد زوجته وإلى أن حان موعد العرض الراقص عند منتصف الليل كانا قد رقصا معاً كل الرقصات وشارك سيرينا برقصة واحدة.. بينما راقصها جيسكار معظم الرقصات السريعة وامتنع عن الرقصات البطيئة.. لكن عندما راقصها رقصة بطيئة لم يقربها منه كما يفعل باقي الراقصين.

تفهمت هذا كتأكيد واضح بأنه يريد أن يبقي علاقتهما على أساس غير شخصي.

لم يمكثوا للمزيد من الرقص بعد العرض مفكرين بمشاعر السيدة لايونز.. أعاد التاكسي الذي أوصلهم السيدة لايونز إلى منزلها، وقال إيڤان بعد اقتراحه تناول القهوة:

ـ هل ترغب بالسير حتى آخر الجدار البحري والعودة بينما تصنع الفتاتين القهوة؟

ـ أجل. لما لا؟

ما إن غاب الرجلان حتى أشارت كارولين لسيرينا باللحاق بها إلى المطبخ وهي تقول:

ـ إيڤان لا يريد حقاً أن يمرن ساقيه.. هناك ما يريد قوله لجيسكار.. أمر لم يذكره قبلاً كي لا يفسد أمسيتنا.

قالت سيرينا بارتباك: «أنا لا أفهم».

دخلت صديقتها إلى القمرة النهارية، وعادت بعد قليل تحمل مغلفاً يحمل طوابع بريد إنكليزية، فيه رسالة وقصاصة مطوية من صحيفة.. وقالت:

ـ لقد كتبت إلى والدة إيڤان لأذكر لها أننا التقينا بجيسكار.. ولم أتوقع منها رداً.. لكنه وصل اليوم.. أرادته أن يصل قبل أن نرحل.. مات جد جيسكار.. وهذا ما يجعله اللورد كريبتون الجديد.. ولقد أرسلت

www.elromancia.com

النعي الرسمي له في التايمز منذ أسبوعين.

وأعطت سيرينا قصاصة الصحيفة.

كان النعي طويلاً يذكر كل الأحداث الرئيسية في حياة المركيز الراحل بدءاً من مولده..

ثم أعطى النعي تاريخ ميلاد أبنائه الثلاثة ثم تاريخ مقتل ولديه الأكبرين دون أولاد، وقيل إن ولده الثالث تزوج الآنسة ڤيرا تريڤور من ايسلنغتون وأنجب منها ابناً هو وريث المركيز الراحل وخليفته.. وانتهى النعي بتعليمات لمراجعة الصفحة ٣.

وسألت سيرينا: عجباً ماذا كان في الصفحة الثالثة؟

فتشت كارولين في المغلف: حماتي أرسلت المقال أيضاً.

كان هذا المقال أكثر إثارة للاهتمام.. فهو يظهر صورة لجيسكار الأكثر شباباً مع شاب آخر كلاهما يضع نظارة غطس حول عنقه والصديق يرتدي قبعة صوفية.. وقالت كارولين:

ـ لقد تعرف آيڤان على الصورة التي التقطت لهما خلال عطلة تزلج.

يقول الخبر مع الصورة: بعد وفاة الجد يقوم محامو العائلة بتحريات في كل أنحاء العالم لاكتشاف المقر الحالي للمركيز التاسع.. وقيل إنه شوهد آخر مرة كأحد حملة النعش في جنازة جدته في مدافن العائلة. لكنه قام بهذا متنكراً بزي أحد عمال الأملاك بسبب الهوة بين والده وجده.

بينما كانت سيرينا تقرأ أن جيسكار قد ميّز نفسه بكونه بطلاً للألعاب الرياضية السنوية لمرتين، انتزعت كارولين القصاصة من يدها وقالت بصوت هامس متآمر:

ـ أعتقد أن الرجلين قد عادا.. ربما لا يجب أن تقولي إنني أريتك هذه.

لم يكن في تصرفات جيسكار عند صعوده مع إيڤان إلى المركب أي تعبير يدل على أنه تلقى أخباراً هامة.. لكن في اليوم التالي وبعد أن ودعا المجموعة على متن السي ويند، غادروا باتجاه «انتيغوا» وعندها شعرت سيرينا بأنه أصبح فجأة مشغول الفكر.

كادت أن تزل بلسانها عدة مرات وتخبره بأنها تعلم ما يشغل باله.. لكن كانت شجاعتها تخونها في كل مرة خوفاً من انزعاجه منها لأمر يفضل أن يحتفظ به لنفسه.

في اليوم التالي، أبحرا باتجاه «مونتسيرات» وهي جزيرة صغيرة سميت باسم راهب إسباني.. وهذا ما أكد لها أن جيسكار لا ينوي اتخاذ تحرك فوري للمطالبة بإرثه.

مرت الأيام دون أن يكشف جيسكار عن أفكاره.. ازدادت إثارة سيرينا حتى أصبحت غير قادرة على تحمل المزيد.. في إحدى الأمسيات بينما كانا يرسوان على الساحل الجنوبي «لمونتسيرات» قالت:

ـ أخبرتني كارولين عن وفاة جدك.. وأعتقد أن هذا يعني أنك لن تؤجر المركب بعد الآن.

نظر إليها مطولاً.

ـ ما كان عليها إخبارك.. أعتقد أنك كنت قلقة حول مصيرك إن عدت إلى انكلترا؟

قالت كاذبة:

ـ قلقة؟ لا.. أنا مشغولة الآن أكثر في شق طريقي في الحياة أكثر من الوقت الذي أنقذتني فيه جيسكار.. والشكر لساندرا سوان ولآلة الخياطة التي أهديتني. أعرف الآن أنني أستطيع كسب قوتي.. بإمكاني العودة إلى انكلترا دون أن تشعر بوخز الضمير ودون أن يقلق بالك عليّ.

ـ سآخذك معي.

قفز قلبها من مكانه، لكن لوقت قصير قالت بعده بهدوء:

ـ لا.. لن ينفع هذا.. كان يمكن أن أكون مفيدة لك على متن المركب، لكن ليس في انكلترا.. كما أن الطقس هناك لن يناسبني.. أفضل الإقامة هنا في الشمس.

ـ وأنا كذلك.. لكن عليّ العودة.. وحيثما أذهب ستذهبين تشكويلا.. قد تكونين وصلت إلى سن قانونية لكن هذا لا يجعلك ناضجة بحسب فهمي للوضع.. بإمكانك إحضار آلة الخياطة معك لتصنعي مناديلاً للشاي بدلاً من حقائب البحر.. لا.. لا تجادليني.. فلسوف

يكون أمامي مواجهة مشاكل تكفيني دون القلق عما سيحدث لك.

ـ لكنني لست من مسؤولياتك جيسكار.. ومن غير المنطقي أن تضيفني إلى أعبائك.

ـ إيقاؤك تحت رعايتي هو أقل الأعباء ثقلاً.. لقد اعتدت على وجودك معي.. أنت لست مشكلة.. خاصة إذا نفذت ما يقال لك.. الآن اذهبي واهتمي بالعشاء يا فتاتي الطيبة!

دفعها بيده وربت بود على ظهرها بالأخرى.

أمضت سيرينا نصف ليلتها صاحية وممزقة بين توقها للذهاب معه، وبين إحساسها بأنه لا يريدها معه حقاً، بل إنه يشعر بالواجب نحوها.

في الساعات الأولى من الصباح استيقظت ووجدت أنهما منطلقان في طريقهما.. ارتدت سروالاً من الجينز وبلوزة قطنية بلون الموز أهدتها إياها كارولين التي قررت أن هذا اللون يناسبها ثم صعدت إلى السطح.

كان جيسكار وراء الدفة.. كانت ملامحه القوية تبدو وكأنها منحوتة من خشب الساج الأسود.. كانت الريح في مؤخرة الشراع والهواء المنعش يملأ شراع المركب ويدفعها فوق الأمواج الخفيفة بسرعة سبع عقد بحرية، ويشكل أجنحة زبد بيضاء على جانبيها ومقدمتها، وذيلاً أبيضاً طويلاً خلفها.

سألته بعد صمت:

ـ هل هذه آخر ليلة لنا في البحر؟

ـ هذا ما أخشاه.. على الأقل لفترة.. أنا لا أرغب بترك الجزر مثلك تماماً.. لكنني أشعر بالولاء لمركز العائلة، وأجد الآن أنه جاء دوري ولا أستطيع أن أدير ظهري وأترك كل شيء خلفي، مع أن الله يعرف أنني لم أرغب يوماً في شيء من كل هذا. ماذا أخبرتك كارولين؟

ـ أخبرتني فقط أن عميك قتلا وهما شابين، وأن هناك خلافاً بين والدك وجدك.. هل أمك حية؟

ـ لا.

حتى مع علمها أنها لا تعرف شيئاً عن والديه فالتعبير السلبي الجامد أفهمها أن علاقته بأمه لم تكن مقربة.. وربما قتلت هذه العلاقة شيئاً ما في داخله، مما جعل من المستحيل عليه أن يشعر بأي شعور نحو النساء عدا الرغبة التي تثيرها أمثال جيني وايل، أو الحنان الأخوي الذي يبدو أنها لا تثير سواه في نفسه.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ وحدها في قصره

بعد ثلاثة أيام من الإبحار جاء دور اختبارها الجوي الأول. نام جيسكار معظم الرحلة لكن سيرينا كانت متوترة جداً ولم تتمكن حتى من أن تغفو.

استغرقت الرحلة تسع ساعات تقريباً لكنها بدت أطول من هذا.. على أي حال، بسبب تغير التوقيت، كانت الساعة تشير إلى مرور أكثر من اثنتي عشرة ساعة منذ انطلاق الرحلة من «انتيغوا» إلى أن حطت بهما الطائرة في مطار هيثرو.

فيما بعد وجدت سيرينا نفسها في مركبة أخذتهما إلى المخرج في ڤيكتوريا حيث انتقلا إلى التاكسي.. هذه الوجهة الأخيرة من الرحلة جعلتها تجلس إلى حافة مقعد وعيناها مشرقتان بإثارة متجددة، بينما كان جيسكار يدلها على جدار مرتفع، قال لها إنه حديقة الملكة. بعد دقائق حوّل اهتمامها إلى قصر قديم وطويل عند زاوية الهايد بارك وقال لها إنه «قصر آبسلي» وهو منزل أول دوق لويلنغتون الذي جرت في حياته معركة واترلو.

سألته وهي تنظر من جهته إلى الواجهة المعمّدة الضخمة: أيشبه كريبتون؟

ـ كريبتون أكبر بكثير.

شهقت: أكبر؟

بدا قصر آبسلي لها كبيراً.. ولا شك أن قصر كريبتون يبلغ حجم قصر الملكة.

بدأت السيارة تسرع بهما باتجاه باركلين.. ولمحت المخازن الكبرى والمحلات التي تحيط بشارع أوكسفورد ثم وصلا إلى وجهتهما، فسارع حارس الباب ليساعدها على الخروج من السيارة بينما اهتم أحد الحمالين بالحقائب.. ودفع جيسكار أجرة التاكسي.

عند مكتب الاستقبال أعطي جيسكار نموذجاً مطبوعاً لملئه.. لاحظت أنه كتب: ج.. وايت والآنسة وايت.. ثم عنوان مصرفه.

كانت غرفتاهما متلاصقتين.. بدت لها غرفتها واسعة جداً بالمقارنة مع المساحة الضيقة في المركب. قال جيسكار بعد أن أطل على غرفتها وقبل أن يتحرك إلى الأخرى:

ـ تعالي إلى غرفتي بعد أن تغتسلي، سنطلب بعض السندويشات والقهوة.

كان كل ما يلزمها لقضاء ليلتها موجود في حقيبة قماش مطرزة تحملها على كتفها.. وكان الفراش محضراً.. أخرجت ثياب نومها ووضعتها على الوسادة ثم أخرجت حقيبة الزينة الصغيرة ودخلت إلى الحمام الذي كان تقريباً بحجم قمرة النوم في المركب. ووجدت صعوبة في أن تستوعب بأنها قطعت الأطلسي وأصبحت في عالم مختلف تماماً.

لا يمكن أن يحتوي هذا العالم أي رعب تحت رعاية جيسكار وحمايته. لكن لو أنها وصلت ههنا من دونه، فكيف كانت ستتدبر أمورها.

فتح بابه بعد أن طرقته سيرينا فرأته يرتدي قميصه الطويل الكمين بعد أن فتح نافذته على اتساعها.. قال، بعد أن لاحظ اتجاه نظرها:

ـ أجد صعوبة في التكيف مع الأجواء المقفلة والتدفئة المركزية.. لكن إذا كنت تشعرين بالبرد سأقفلها.

ـ لا.. لا أشعر بالبرد.. لكن الأفضل أن تكون مقفلة.. جيسكار لماذا أعطيت أسماء وهمية حين وقعت كشف التسجيل؟

ـ وهل يقلقك هذا؟

ـ لا.. لا شيء مما تفعله يقلقني.. أصابتني الحيرة. هذا كل شيء.

ـ لا أريد أن تشم الصحافة رائحة وصولي كما سيحدث لو أنني

سجلت اسمي الحقيقي. . إن استخدام اسم زائف ليس بالأمر غير القانوني شرط أن يكون السبب لحماية خصوصيات المرء، وأن لا يكون القصد إجرامياً.

ـ ما هو اسمك الحقيقي الآن؟ ماذا كنت ستكتب لو لم تكن متخفياً؟

ـ كريبتون فقط. . العنوان الذي أعطيته هو للحيطة فيما لو خلفنا شيئاً وراءنا. . أرجو أن لا تجدي نفسك ترتجفين في كريبتون غداً في مثل هذا الوقت. إن وجدنا المكان بارداً كالقبر فسنضطر إلى الإقامة في النزل. . لكننا بعد الليلة لن نستطيع الاستمرار بأن نكون أخاً وأخته. . فمن المعروف أن لا أخت لي. .

وصل الساقي وهو يجر عربة عليها صينية قهوة وسندويشات. قال جيسكار بعدما خرج:

ـ ستساعدك الوجبة الخفيفة على النوم لأول ليلة لك على اليابسة بعد زمن طويل من الإبحار.

ـ الليلة الأخيرة التي قضيتها على اليابسة كانت في ذلك الفندق الكريه الذي كنت أعيش فيه مع أبي. . أوه. . يبدو لي هذا منذ زمن طويل.

قال ينظر إليها مفكراً:

ـ أجل لقد تغيرت كثيراً منذ تلك الأيام. . لكن ليس كما ستتغيرين من الآن وصاعداً.

ـ ولماذا سأتغير من الآن وصاعداً؟

لم يرد بل قدم لها سندويشاً ثم اتصل بإيڤان ستيوين، فاستمعت إلى حديثهما ومن ثمّ تحدثت مع كارولين. التي أبدت غضبها لأنهما لن يقيما معها الليلة.

في الصباح رافقها إلى محل لبيع الأحذية وهناك أشرف على شراء حذاء جلدي يناسب السير على الأقدام. وقال راداً احتجاجها:

ـ سنقوم بالكثير من الطواف سيراً في الأسبوعين المقبلين. . وستعيقينني إن لم يكن حذاؤك مناسباً.

بعد شراء الحذاء رافقها إلى سلسلة مخازن شهيرة لمساعدتها على شراء أساسيات ثيابها الإنكليزية. . وقال محذراً:

ـ بعد هذا سأتركك تختارين ما تبقى كما تشائين. . لكن ضعي في ذهنك أن أكثر الأماكن برودة هي البيوت الإنكليزية الريفية إن لم تكن مزودة بنظام تدفئة عصري وهذا بعيد عن كريبتون. . سيكون هناك العديد من الأيام في هذا الصيف التي ستشعرين فيها بالبرد القارص. . نحن محظوظان لوصولنا في موجة حارة مبكرة. . لكن الطقس ليس هكذا دائماً.

فكرة جيسكار عن الأساسيات من الثياب كانت معطفاً واقياً من المطر وتنورة مكشرة من التويد وسروال صوفي محبوك يدوياً، وزوج من الكنزات الصوفية المحكمة الأقفال.

قال وهو ينظر إلى ساعته:

ـ الآن عليّ الذهاب إلى موعدي، إن لم تصرفي المال الذي أعطيتك إياه سأعيدك إلى هنا وأجبرك على صرفه. لكن سيكون من الملائم أكثر أن ننطلق إلى كريبتون بعد الغداء مباشرة. . لذا كوني فتاة طيبة وافعلي ما قلته لك. . أراك فيما بعد.

ربت على كتفها بطريقة عفوية ثم ابتعد وترك سيرينا تتساءل ما إذا كان حقاً يتحمل ثمن كل ما تحتاج إليه.

هكذا، وبعد أن حملت أول دفعة من الأكياس الخاصة بالمحل إلى الفندق، تركتها في رعاية الحمال الذي أوصل حقيبتيهما. ثم عادت إلى المخزن الكبير وشقت طريقها إلى قسم الحقائب، حيث كان هناك مجموعة كبيرة ومن الصعب الاختيار.

كانت تتمتع بالتفرج على واجهات المحلات متى سنحت لها الفرصة. . لكن ذلك الصباح الأول لها في لندن، مع المزيد من المال المخزون بأمان في حقيبة يدها الجديدة بأكثر مما حلمت أن تصرفه في حياتها. . اكتشفت أن الشراء أفضل بكثير من مجرد النظر إلى الواجهات.

على أي حال ولأن جيسكار طلب منها أن تقابله في الساعة الواحدة في مطعم الفندق للغداء، فقد تابعت النظر إلى ساعتها كي لا تتأخر. . وكانت الساعة الواحدة إلا عشر دقائق عندما عادت إلى الفندق واستلمت رسالة منه تخبرها بأنه سيتأخر وعليها الغداء وحدها، وسيأتي لاصطحابها في

الساعة الثانية والنصف.

كان سيناسبها أكثر لو تناولت سندويشاً وفنجان قهوة في الصالون. لكنها كانت تتوقع منه لومها إن تناولت وجبة سريعة. هكذا دخلت إلى المطعم حيث أعطيت طاولة لشخصين، ثم جلست على المقعد العريض لتراقب الحاضرين.

عندما عاد جيسكار كان يقود سيارة صغيرة مستأجرة. قال لها وهما يقطعان نهر النايمز:

ـ كان لكريبتون محطة قطارات خاصة بها لكن هذه الخطوط أغلقت منذ سنوات.

كانت الطريق خارج لندن عبر أميال من الضواحي غير المحددة الشكل كلها مزروعة.. رأت العديد من الوجوه الهندية الغربية وتساءلت ما إذا كانوا يشتاقون إلى جزرهم.. لكن بالنسبة لها أي مكان مع جيسكار هو أفضل من الفراق عنه.

أحياناً كان جيسكار يتوقف ويتفحص خارطة الطريق، ويستدير إلى طريق يمرّ بهما أمام مصانع قديمة وقرى أكواخها قرميدية السقوف ومبنية حول بساتين الخضار، في بعضها بحيرات صغيرة.. أما الكنائس القديمة فتنتشر في كل مكان هناك، بعضها مداخله مسقوفة والبعض الآخر له قبب من خشب السرو فوق المدخل حتى الباحة، حيث يختبىء زهر النرجس البرّي بين العشب النامي حول حجارة القبور.

قال جيسكار عند وصولهما إلى مفترق طرق حيث جدار من آجرّ مرتفع يحد جانباً من طريق ريفية أمامهما:

ـ لم نعد نبعد كثيراً الآن فهذا الجدار هو الحدود الشمالية والشرقية لكريبتون.

لكن مرّ ميل إن لم يكن أكثر قبل أن ينتهي الجدار بمدخل رائع.. مؤلف من قنطرة مثلثة يدعمها عمودين من كل جانب، وحواجز حديدية مشغولة بينهما، وباب حديدي كبير مزدوج، توقف جيسكار وخرج من السيارة وسار نحوه. بينما كان يتقدم من الخارج ظهر رجل مسن من الداخل. لا بد أنه كان ينتظر على الشرفة المسقوفة لمنزل الحراسة داخل

الأبواب مع أن ذلك المنزل بدا مهجوراً.

لم تسمع سيرينا أول الكلام الذي تبادله الرجلان من مقعدها في السيارة.. لكن بعد أن ساعد جيسكار العجوز في فتح البوابتين الضخمتين إلى الداخل عاد إلى السيارة وقادها عبرهما. ثم توقف على بعد ياردات في الداخل وساعد العجوز في إغلاقها مرة أخرى.

قال جيسكار: هذا پايروت خادم جدي سيرينا.. لقد التقيت بوالد الآنسة فرايزر في أميركا الجنوبية حيث مات وتركها في عهدتي.

وهو يتكلم طوى المقعد الأمامي ليسمح للعجوز الذي يبدو على الأقل في الخامسة والسبعين، أن يتسلق ببطء وتصلب إلى المقعد الخلفي من السيارة الصغيرة.. وقال:

ـ مساء الخير آنسة.

ابتسمت له بخجل: «مساء الخير».

صعد جيسكار إلى السيارة وأدار المحرك وبدأ عملية تقدم غريبة صعوداً في طريق داخلية طويلة محفوفة بالأشجار سيئة حالها، حتى أنه كان يدير السيارة يميناً وشمالاً بشكل دائم ليتجنب الحفر والأخاديد. سأل الخادم من فوق كتفه:

ـ هل كل طرقات الأملاك سيئة كهذه پايروت؟

ـ الطريق من البوابة الغربية هي الوحيدة المعتنى بها الآن سيدي اللورد.. كان يجب إعلامك بأن هذه الطريق لم تعد مستخدمة.. لكن مع أننا تلقينا تعليمات أن نتوقع وصولك من هنا، إلا أن السيدة روبي اهتاجت ارتباكاً عندما سمعت صوت سعادتك على الهاتف هذا الصباح. لو كنت موجوداً ساعتها لنصحتك بأن تأتي عبر البوابة الغربية.

ـ ليس من فارق بالنسبة لنا پايروت.. لكن هذا كان سيوفر عليك مسيرة طويلة لتفتح لنا الأبواب.. منذ متى وهي مقفلة؟

ـ منذ أن أخذ العجوز السيد بلايت إلى مأوى العجزة. وهذا كان منذ ست سنوات في عيد الفصح سيدي اللورد. إنه لا يزال حياً لكنه هرم وخرف تماماً. ذهبت السيدة روبي لرؤيته في ذكرى ميلاده الرابع والتسعين لكنه لم يتعرف عليها.

قال جيسكار لسيرينا شارحاً:

- هذا العجوز بدأ حياته كصبي مساعد للجنائني في زمن جدي الأكبر، وتوصل إلى مركز كبير الجنائيين.. عاش هو وزوجته في منزل الحراسة وكانت زوجته تفتح وتقفل الأبواب التي كانت في حالة جيدة يومها ولم تكن صعبة عليها. أما السيدة روبي فكانت خادمة جدتي.

الآن بدأت تفهم ما قاله عن السير الطويل.. الطريق الداخلية بدت مستمرة لأميال تتلوى عبر فدادين من الأراضي الريفية التي تحيط بها الأحراج إلى أن أطلوا أخيراً من قمة مرتفعة في الطريق على منزل كبير في مكان محمي ضمن تجويف يواجه الجنوب، والبحيرة من ورائه تلمع تحت أشعة شمس الربيع.

كان جيسكار قد أخبرها قبل الآن أن كريبتون الذي جرى تصميمه عام ١٧٢١ استغرق عشرين سنة من البناء وأصبح يعتبر المثال الرائد للطراز الإنكليزي لفن العمارة..

لكنه لم يحضّرها لعظمة الواجهة الشمالية بأحجارها الرملية الذهبية، وسقفها القائم على الأعمدة والمحاط بأجران حجرية مغطاة.. كان الجزء الرئيسي من المبنى الفخم محاطاً بجناحين أكثر انخفاضاً.. كل منهما بحجم منزل ريفي كبير.. ومتصل بالمبنى الرئيسي بصف من الأعمدة.

لم تستطع سيرينا كبح شهقة إعجاب فور رؤيتها لقصر كريبتون الممتد أمامها لأن كل هذه الفخامة هي ملك لجيسكار.. هذا ما جعلها تدرك أكثر من قبل عمق الهوة التي اتسعت الآن بينهما.

لو أنها نشأت في انكلترا ولو أنها لم تطأ بالفعل أي من المنازل الفخمة والقصور المفتوحة للعامة، لكانت بالتأكيد شاهدت صوراً لها أو رأتها على شاشة التلفزيون.. لكن تربيتها في أميركا الوسطى والجنوبية جعلت تعرّفها على كريبتون يؤثر فيها كالصاعقة.

بينما كانت تدخل المنزل عن طريق قاعته الشهيرة لاحظت الغبار السميك فوق النقوش الحجرية في الطابق الأسفل، وحالة السجاد المهترىء على السلم العريض كعرض الطريق في الخارج الذي يصعد إلى الطابق الأول.. لكنها لم تشاهد شيئاً من علامات الإهمال.. بل شاهدت

فقط روائع وجمال أبعد من أكثر خيالاتها جنوناً.

لا شك أن وصولهما كان مرتقباً فعند وصولهم رأوا صفاً من الأشخاص المسنين مصطفين لتحية المركيز الجديد.

وقفت سيرينا جانباً تشعر بأنها غريبة وسطهم.. بينما أخذ بايروت يقدم الأشخاص إلى جيسكار.. كان بينهم امرأتان فقط الطباخة وخادمة السيدة الراحلة، التي قدمها جيسكار لسيرينا فيما بعد قائلاً:

- سيدة روبي، أيمكن أن تأخذي الآنسة فرايزر إلى الغرفة التي حضرتموها لها؟ إنها غريبة عن انكلترا ورحلتها كانت طويلة ومتعبة.. أنا واثق أنني قادر على الاعتماد عليك للترحيب بها وتأمين راحتها قدر المستطاع.

ابتسمت السيدة روبي:

- بكل سعادة سيدي اللورد.. أتسمحين بأن تأتي معي من هنا آنسة فرايزر؟

وأشارت نحو السلم الكبير.

كانت تقريباً أصغر سناً من زملائها الرجال، لا يزيد عمرها عن الستين.. شعرها رمادي متجعد وفستانها رمادي قاتم ومرتب.

استدارت يساراً عند أعلى السلم عبر ممر طويل مليء «بالكانفا» المطرزة والمعلقة على جداره، بينما الجدار الآخر مليء بالصور الزيتية. والكراسي والطاولات والكنبات كانت مرتبة على فسحات طوال الممر والأرضية مكسوة بعدة بُسط.

قالت السيدة روبي:

- هذا يسمى الرواق الصغير.. لقد وضعناك في الغرفة الملحقة بغرفة صاحبة السعادة حيث كنت أنام عندما كانت مريضة.. إنها غرفة من السهل تدفئتها أكثر من غرفنا.. فقد فكرنا أنك ستشعرين حتماً بالبرد وقد أتيت من بلاد دافئة.. لكن إن لم تعجبك لصغر حجمها فبإمكاننا نقلك إلى مكان آخر.. الغرف التي كانت تستخدم للضيوف في الأزمان القديمة رطبة جداً الآن.. سيكون أمام صاحب السعادة مهمة شاقة في إصلاح المكان.. كما أخشى.

قالت سيرينا مترددة:

ـ عرفت أنك كنت مع جدة اللورد كريبتون منذ زمن طويل؟

ـ طوال حياتي العملية ما عدا بضعة أشهر.

أوصلهما الرواق الصغير إلى فسحة عند رأس سلم كبير آخر قادهما إلى ممر ضيق ثم إلى مخدع الماركيزة الراحلة.. هنا كانت النوافذ الطويلة تطل على حديقة ورود ومنظر بعيد لمعبد على أطراف الغابة.

إلى جانب المخدع يوجد غرفة ملابس أكبر بكثير مما تصورتها سيرينا، فيها سرير صغير في الزاوية بين خزانتي ثياب من خشب الماهوغاني وورق جدران يمثل قضبان البامبو البيضاء على أرضية زرقاء.. ومنها دخلت إلى حمام كبير، حيث المغطس مغطى بخشب الماهوغاني، له ثلاث حنفيات نحاسية لامعة، على أحدها كلمة «رين».

قالت السيدة روبي:

ـ ستجدين المياه لطيفة وساخنة.. هذا الجزء من المنزل مجهز بإضاءة كهربائية غير موجودة في الغرف الرئيسية.. كانت صاحبة السعادة الراحلة تحب أن تكون مرتاحة.. بعد وفاتها أصبح صاحب السعادة صعب المراس.. ولم يعد يصرف بنساً واحداً على أي شيء.. لكن هذا من الماضي ونحن نأمل بالأفضل الآن.

بينما كانتا تتحدثان جاء رجل يحمل حقائب سيرينا، وصفته المرأة بعد خروجه بأنه مختل العقل قليلاً لكنه نافع.

بعد هذا بوقت قصير جاءت الطباخة المسماة كولي بصينية شاي.. وبدت مستعدة للبقاء والهذر، لكن السيدة روبي أعادتها إلى حيث أتت بكل لباقة.

قالت السيدة روبي معتذرة:

ـ إنها طيبة لكنها ليست من المدرسة القديمة.. لا تعرف مكانها آنسة فرايزر.

فكرت سيرينا بقلق: ولا أنا أعرف مكاني.. فهل هناك مكان لي هنا؟

بعد الشاي والبسكويت ساعدتها السيدة روبي على الراحة في المقعد الطويل ووضعت تحت رأسها الوسائد ولفت قدميها بالبطانية بعد وضع

زجاجة ماء ساخن عليهما.

عندما استيقظت من قيلولتها رأت أن الليل قد أرخى سدوله ولم يبق أي أثر للنهار. كانت الستائر مسدلة فوق النوافذ، والغرفة مضاءة بمصباح صغير على الطاولة.. إنها لا تعرف تماماً متى يحل الظلام في انكلترا، لكنها أحست بأنها نامت أطول مما كانت تنوي. نظرت حولها بحثاً عن ساعة.. كانت الساعة التاسعة حسب الساعة الموضوعة على خزانة الأدراج المنخفضة. لكن ربما الساعة لا تعمل.. أرجعت البطانية إلى الوراء وما إن همت بالنهوض لتتأكد من حسن سير الساعة حتى فُتح الباب ودخلت السيدة روبي.

ـ أوه.. لقد استيقظت آنسة فرايزر.. لقد تفقدتك مرتين ووجدتك نائمة فترددت في إيقاظك، وعندما استشرت صاحب السعادة قال بأن لا أزعجك.. فظننا أنك قد تنامين طوال الليل، لكنه أعطى تعليماته بأنك إن استيقظت فستتناولين العشاء في الفراش وسيراك عند الفطور.

ـ أوه.. هكذا إذن.. لا شك أنه تناول عشاءه الآن؟

ـ أجل في الساعة الثامنة. وأعتقد أنه ينوي النوم باكراً.. عادت كولي إلى القرية، إنها لا تعيش هنا.. لديها أب مقعد يتطلب رعايتها ليلاً..

بعد العشاء أخذت حماماً طويلاً.. وكان يمكن للسيدة روبي أن تحضره لها وتنتظرها حتى تنتهي، إلا أن سيرينا أحست بأنها لن تشعر بالارتياح إن بقيت امرأة في مثل سنها تنتظرها.

عندما انتهت من الحمام جففت نفسها. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والربع.. ولم تعد تشعر بالتعب بل رغبت في كتاب تقرؤه.. ولم تجد في الغرفة كتب.

ارتدت ثوب نومها الجديد الطويل الأخضر والأبيض، وفوقه الروب معتقدة بوجود كتب في غرفة الماركيزة، دخلت الغرفة الملاصقة، فوجدت على الفور مفاتيح النور وضغطت الأربعة معاً.. كانت النتيجة دفقاً من النور الخوخي اللون الذي أرسله مصباحان على الجدار وآخران على الطاولة.

كانت غرفة النوم المضاءة هكذا كبيرة وفخمة، تحتلها نافذة «فينيسية»

ملونة الزجاج، عليها ستائر من نفس الحرير الخوخي الذي يغطي الجدران.. السرير كان ذو قوائم أربعة مرتفعة ومذهبة.

لكن ما لفت نظرها على الطاولة في مكان لا يبعد كثيراً عن الباب مجموعة حيوانات صغيرة محفورة من أحجار كريمة ملونة، لاحظت أن إحداها من الجاد. التقطتها سيرينا واحدة واحدة.. أرنب بطول أنشين.. بعينين حمراوين، أيمكن أن يكونا من الزمرد؟ فقمة سوداء فوق قطعة جلبد بيضاء ناصعة، لا شك أنها من الكريستال.. فأرة زرقاء.. حلزون أخضر العينين.

ـ جدتي كانت تجمع الأشياء الفنية الصغيرة.. هل أعجبتك؟

قفزت سيرينا مجفلة والتفتت.. لم تسمع جيسكار وهو يدخل من الباب في الطرف الأبعد من الغرفة.. وابتهجت لرؤيته لكنها في نفس الوقت أحرجت لأنه وجدها في غرفة ربما لا يجب أن تكون فيها.

ـ أجل.. إنها منحوتات جميلة.. أنا لم أكن.. أتطفل. جئت لأبحث عن كتاب.. بعد أن نمت طويلاً لا أشعر الآن بالنعاس.

تقدم نحوها وبداه في جيبي رداء نوم حريري أحمر قاتم، يرتديه فوق بيجاما رمادية فاتحة، لم تكن تعرف أنه يمتلك مثلهما إلا إذا كان قد اشتراهما اليوم.

ـ يا فتاتي العزيزة.. استكشفي كما شئت.. أنا لم أدخل هنا من قبل.. لكنني أعرف هذه الأشياء لأن جدتي كانت تتحدث عنها وشاهدت بعضاً منها في المتاحف.. هل أنت سعيدة حيث تنامين؟ ألست متوترة لأنك وحدك؟

ـ أوه.. لا.. غرفتي حميمة جداً. تعال والقِ نظرة عليها.

تقدم إلى الباب وتفحص غرفتها بسرعة وقال:

ـ أفضل من غرفتي. لقد وضعوني في غرفة العجوز الأبرد من القبر.. ومخيفة مثله.

ـ ألا تستطيع الانتقال؟ أيجب أن تبقى هناك؟

ـ سأبقى هناك الليلة، فالفراش نظيف ومهوّى.. في الغد سأختار غيرها.. فهناك الكثير من غرف النوم.. على الأقل عشرون منها.. في

الصباح سأريك المكتبة.. لأنها الليلة باردة جداً.. هناك بعض الكتب في الغرفة التي جلست فيها بعد العشاء.. سآخذك إليها.

اختارت سيرينا كتابين، وتمنت لو يعيد إشعال النار ويجلس ليتحدث إليها حول المشاكل التي تواجهه.. لكن مع أن الغرفة الصغيرة كانت دافئة إلا أنه لم يحاول إطالة المكوث فيها.. بينما كانت تصعد السلم مجدداً علق اصبع قدمها بخيط متدلٍّ من السجادة وكادت أن تقع لولا أن أمسك جيسكار ذراعها، وقال وهو ينظر إلى المكان المهترىء:

ـ هذا فخ موت.. ألم تشتري خفاً هذا الصباح؟

ـ لا.. كان يجب أن أشتري لكنني نسيت فأنا لست معتادة على ارتدائها.. لا يهم.. قدماي ليستا باردتين.

ـ ربما لا.. لكن قد يكون هناك شظايا خشب في الأرضية حيث لا سجاد عليها.

قبل أن تعي ماذا يريد أن يفعل رفعها بين ذراعيه ووضع ذراعاً تحت ركبتيها والأخرى خلف ظهرها.. وقال:

ـ ضعي ذراعك خلف عنقي.

بدت المسافة إلى غرفتها أقصر بكثير.. وجدت نفسها تفكر كم سيكون رائعاً لو يبقى معها في الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة جدته عوضاً عن النوم في غرفة جده المقبضة للصدر والباردة.. كم تتمنى تلك النعمة أن تنام وتستيقظ وهي على كتفه..

جعلتها أفكارها ترتجف فظن جيسكار بأنها تشعر بالبرد وقال: هذا المخمل الأخضر لائق بك.. لكنني أعتقد أن قماش الصوف أكثر دفئاً.

وصلا إلى غرفتها حيث ظنت أنه سينزلها على قدميها، لكنه انتظر إلى أن فتحت الباب فدخل وأغلقه وراءهما. بينما كانت يدها تنزلق عن عنقه تمسكت بياقة روبه.

ـ جيسكار ابق معي قليلاً.. أريد أن أقول لك.. كم.. كم أنا ممتنة لك لأنك أحضرتني إلى هنا.. ولا أعرف كيف أكون مفيدة لك. لكن لا بد أن هناك طريقة لأرد لك فيها الجميل لكل لطفك.

حقق إمساكها بياقة ردائه لها ما أرادت، فقد جلس على حافة السرير

متغضن الملامح وعاقد الحاجبين وتفرس في وجهها المحمر قليلاً.

قال: من المؤسف أنك لست أصغر سناً بخمس سنوات.. أو أكبر بخمس سنوات.. سأتناول الفطور في السابعة صباحاً ثم سأخرج لأتجول في الغابة.. بإمكانك الانضمام لي أو لا.. كما ترغبين. تصبحين على خير سيرينا.. نامي جيداً.

وقف ومشى نحو غرفته عن طريق غرفة المركيزة. وتركها تتساءل لو كان يعرف ما كان يدور في خلدها وكانت هي أكبر سناً ببضع سنوات، هل كان سيعود إلى غرفة جده الباردة؟

***

٦ ـ أشتاق إليك كثيراً

انطلقا معاً في الصباح التالي باتجاه غابة أشجار الزان المعروفة باسم «هوم وود». كان العشب حينها فضي اللون بقطرات الندى التي تغطيه والهواء يلذع برطوبة منعشة.

السير بين الأشجار دون خوف من الحيوانات المتوحشة أو الأفاعي السامة كان تجربة جديدة لسيرينا.. أملت أن يسيرا هكذا معاً كل صباح.. فلو حصلت على القليل القليل من وقت جيسكار فسيكون كافياً لها.

سمعت صوتاً لم تعرف على الفور أنه صهيل جواد بينما كانت تجمع النرجس البري من بين الأشجار، استقامت ونظرت حولها لترى مصدر الصوت فشاهدت جواداً وفارسه يظهران أمامها من خلف شجيرات شائكة كثيفة حيث يلتقي الممر الذي يسيران فيه مع آخر.

كان الجواد أسوداً.. وفارسه فتاة شقراء الشعر.. ما إن لمحت جيسكار يتقدم نحوها حتى شدت لجام مطيتها وترجلت عن السرج بعد وقت قصير.

كانت طويلة القامة جداً لكنها لم تكن مسترجلة ولا مشاكسة.. بل كان جسدها رائعاً.

قادت جوادها نحو جيسكار الذي توقف عن السير عندما رآها تترجل، عندئذ شعرت سيرينا أنه يواجه مع الفتاة نده الجسدي.. فلا شك أن معظم الرجال يبدون أمامها كالأقزام لكنها معه كانت تبدو بطول طبيعي. كانا يبدوان معاً وكأنهما فردين من جنس بشري متفوق.

ـ صباح الخير.. لا شك أنك اللورد كريبتون.. أنا.. هل أحتاج إلى

www.elromancia.com

أن أقول إنني داخل أراضيك دون إذن منك؟

وصل صوت الفتاة الرقيق بوضوح إلى حيث كانت سيرينا تراقبها تقدم نفسها إلى جيسكار.. عندها غاص قلب سيرينا فمع مثل هذه الرنة الخاصة بدأ جيسكار علاقته الغرامية بجيني وايل.

أجابها جيسكار:

ـ صباح الخير.. أنت محقة.. أنا كريبتون.. لكن لا تقلقي. أنا أصفح عن المتطفلين.. شريطة أن يكونوا من بنات جنسك شابات جميلات الطلعة.

قالت المرأة الشابة بابتسام:

ـ لا تقلق في هذا الشأن.. أنا أدعى موريا آرتشر. كنا نعيش في «مالينغتون» لكن أسرة «كاربنتر» تملكه الآن.. لكن قد لا يعني الاسم لك شيئاً لأنك عدت لتوك من الخارج.

مر اللجام من يدها اليمنى خلف ظهرها إلى يدها اليسرى ثم مدت يدها مصافحة.. قال وهو يصافحها:

ـ على العكس.. أعتقد أن جدتي وجدتك كانتا صديقتين مقربتين، آنسة آرتشر. وأذكر أنني التقيت مرة بجدتك عندما كنت صبياً صغيراً أتناول الشاي مع جدتي في لندن. لكن اسم كاربنتر غير معروف بالنسبة لي.. أتقولين إنهم يملكون «مالينغتون هال» الآن؟

كانت الفتاة واثقة من نفسها حتى أنها لم تتأثر أبداً ببقاء يدها مطولاً في يده أكثر من اللازم. ثم ردت عليه:

ـ أجل.. لقد اضطررنا إلى بيعه للعيش مع جدتي المتوفاة، هناك الكثير من الغرف هناك لي ولوالديّ عدا عن عدم وجود مكان أركب فيه الخيل. لذا فأنا آتي إلى هنا.. أو كنت أفعل أيام جدك.

ـ وستستمرين في هذا في أيامي.. كما أرجو.

ـ هذا لطف منك.. لكن قد ترغب أنت في امتطاء الخيل.

ـ أنا لا أمتطي الخيل.. وإن رغبت فهناك مكان يتسع لأكثر من راكب واحد.. ألا تظنين هذا؟

ـ أوه.. أجل.. المكان يتّسع لعشرة.. لكن مع ذلك قد تفضل أن

يكون المكان لك وحدك، وهذا ما قد أفعله إن كنت مكانك. بصراحة يجب أن أعترف أنني كنت الشخص الوحيد الذي لم يكن متشوقاً لوصولك، هذا لأنني اعتقدت بأنك صارم مثل جدك.

ـ ربما سأكون هكذا فيما بعد في حياتي لكن ليس الآن.

ترك يدها والتفت نحو سيرينا:

ـ سيرينا تعالي للقاء أحد الجيران.

عادت إلى الممر ويدها مليئة بالنرجس. لم تكن سيرينا واثقة لكنها ظنت أنها رأت في عيني موريا آرتشر تعبيراً عن دهشة غير راضية لأنها اكتشفت أنها ليست وحدها مع خليفة الماركيز العجوز. قدمها جيسكار بإيجاز:

ـ سيرينا فرايزر.. موريا آرتشر.

أضاف بلطف وهما تتصافحان:

ـ أعتقد أنني محق بالقول مقارنة مع عائلة الآنسة آرتشر، فإن عائلة فيذرستون مجرد محدثي نعمة.

ـ أجل.. ليس هناك الكثير من العائلات التي تستطيع إثبات سلالتها إلى ما لا نهاية، لكن من المؤكد أنه كان هناك عائلة آرتشر في «مالينغتون هال» منذ عام ١٠٨٢.. ولسوء الحظ أفسدت أنا هذا السجل.

ـ أليس لديك أخوة؟

هزت رأسها نفياً.. هذه الحركة جعلت سيرينا تشعر بالأسى نحوها.. هي غريبة في هذا العالم من العائلات القديمة المتجذرة، لكن هذا لا يمنعها من الإحساس بأنّ من لا يُظهر خيبة أمله لعدم إنجابه الأبناء ليتابع سلالة لم تنقطع أبداً منذ أكثر من تسعمائة سنة هو أب مميز وشاذ.

وماذا عن كون هذا المولود فتاة وطويلة بشكل مميز.. من الواضح أن موريا مضطرة لأن ترضى بصفتين ضخمتين لها في حياتها.

قالت موريا:

ـ قلت إنك لا تمتطي الخيول.. أتعني أنك لا تستطيع الركوب حالياً لأن اسطبلات كريبتون فارغة حالياً؟ أم لأنك لا تجيد ركوب الخيل؟

ـ الأخير.. فأنا بحّار ولست فارساً.

ـ أوه.. بحّار! جميل أن يبحر المرء. أعتقد أن في هذا تسلية كبيرة.. لكنني أتصور أنك ستجد أنه من الضروري أن تركب الخيل خاصة وأنك أتيت للمكوث والعيش في كريبتون.. ستكون سيارة لاندروفر مفيدة جداً لك في التجول في أملاكك.. لكنها لن تكون مفيدة للغابات بل سيكون الحصان هو المفيد في هذه الحالة.. لدي جواد كستنائي سأكون سعيدة بإعارتك إياه إذا أحببت.

ـ شكراً لك.. لكنني لا أظن هذا.. فكما تقولين قد أجد أنه من الضروري أن أتعلم ركوب الخيل.. لكن ليس في الوقت الحاضر.. أليس من المفروض أن ترتدي خوذة وأنت تركبين الخيل وحدك في الغابة؟

ـ في الواقع أجل.. لكنني لا أرتديها إلا عندما أصطاد طبعاً.. هل تجيدين ركوب الخيل يا آنسة فرايزر؟

ردت سيرينا: لا.. لا أعرف.. لا شك أنك تعلمت الركوب منذ الطفولة؟

ـ أوه أجل.. لقد وضعت على ظهر فرس صغير قبل أن أستطيع المشي.. لكن ليس من الصعب تعلم الركوب لمن يرغب في هذا فيما بعد.

تابعت الحديث لبضع دقائق ثم امتطت حصانها وابتعدت. قال جيسكار بخشونة بعد أن ابتعدت:

ـ لدي انطباع أن هذه الشابة تنظر إلى من لا يجيد ركوب الخيل على أنه ينقصه صفة هامة جداً.

لكن سيرينا لم تكن مرتاحة كثيراً رغم لهجته الساخرة.. لقد رأت لمعان الافتراس في نظرته إلى الآنسة آرتشر وهي ترفع قدمها لتركب مرتدية ذلك الحذاء الطويل الساق.

فيما بعد سأل بايروت وقت الغداء:

ـ ما هي نوعية آل كاربنتر الذين يقطنون الآن في مالينغتون هال؟

ـ أعتقد أن السيد كاربنتر ليس شهيراً بما يكفي سيدي اللورد.. فمعظم الناس يتكلمون بإعجاب عن الآنسة كاربنتر.. ولا أستطيع الثناء على صدق الرواية لكن يقال إن السيد كاربنتر صرّح أنه سيقدم عرضاً لشراء

«كريبتون» لو لم تصل التحريات لمعرفة مكان سعادتك إلى نتيجة ناجحة.

ـ حقاً؟ لا بد أنه رجل ثري.

ـ إنه مليونير جداً كما يقال سيدي.

قال جيسكار مازحاً:

ـ ربما يجب أن أقدم عرضاً للآنسة كاربنتر.. هل هي شابة؟ هل هي جميلة؟

ـ أعتقد أنها لا هذا ولا ذاك سيدي.. لقد التقت السيدة رويي بها وبإمكانها أن تصفها لك.

ضحك جيسكار:

ـ لن تكون كريبتون المكان الأول الذي يتم إنقاذه بالزواج من وريثة غير فاتنة.. على أي حال هذه مسألة لا أظنني أحتاج إلى التفكير بها..

سألت سيرينا بعد أن تركهما بايروت:

ـ أتفكر بأن تفعل شيئاً مماثلاً؟

ـ حتى الآن لا.. ربما سيتعرض القصر للهدم.. على أي حال المسألة الضاغطة أكثر الآن هو كيف نستطيع جعل وضعك في منزلي قانونياً.

سألت بارتباك: ماذا تعني؟

ـ يمكننا الاستمرار في الادعاء أنني ووالدك كنا صديقين فتركك تحت رعايتي.. لكنني أعتقد أنه سيبقى هناك بعض من يرفع الحاجبين في بعض الأوساط إن استمرينا بالعيش معاً دون وجود امرأة كبيرة في السن تقوم بالترتيبات المقبولة في نظر المتزمتين.

ـ السيدة رويي امرأة كبيرة في السن.

ـ أجل.. لكن لا حساب لها.. ما نحتاجه هو أنثى قريبة لا شك في نزاهتها.. عند عودة بايروت سأسأله ما إذا كان قادراً على التفكير فيمن تناسب.

عندما عاد بايروت وقدم الحلوى سأله جيسكار عمن تناسبهم كقريبة:

ـ هناك اللايدي روزبلاند، عمة سعادتك الكبرى.

ـ لم أكن أعرف أن لي عمة. أتعني أن جدي كان له أخت؟ كيف لا أعرف عنها شيئاً؟

ـ إذا جاز لي أن أستخدم التعبير: كانت مطرودة من قبل المركيز الراحل.. اسمها لم يذكر هنا أبداً.. وبسبب كون السيدة روبي كاتمة سرّ صاحبة السعادة عرفنا صحة ادعاء اللايدي روزيلاند عندما حضرت جنازة صاحب السعادة.. وإلا لظنناها شخصية مخبولة اخترعت هذا الادعاء بالقربى.

ـ كم عمرها يا پايروت؟ هل هي نشيطة؟

ـ إنها نشيطة جداً في الواقع.. إنها في الرابعة والثمانين على الأقل سيدي.. لكن لا يستطاع تخمين عمرها جيداً حكماً بمظهرها. لقد حضرت الجنازة ليس بسبب احترامها للفقيد بل حباً برؤية مرتع طفولتها مجدداً.. ثم عرّفت نفسها للسيدة روبي ولي.. وقالت لنا بكل لطف إننا إن وجدنا أية صعوبة في التأكد من سلامة سعادتك فستكون سعيدة بأن تساعدنا.

ـ إذن تعرف أين تعيش؟ هل هو بعيد من هنا؟

ـ على بعد ساعة بالسيارة من هنا.. سيدي.

ـ عظيم.. سنزور عمتي الكبرى.. إذا أحببناها وأحبتنا سنرى ما إذا كان بالإمكان إقناعها بالعودة إلى منزلها القديم.. لن نشرب القهوة اليوم پايروت.. تعالي سيرينا.. أركضي واحضري معطفك الواقي.. يبدو أنها ستمطر اليوم.. وسيكتب پايروت لنا العنوان ثم نذهب.

كان الوقت مبكراً عندما أطفأ جيسكار محرك السيارة خارج أول كوخ في صف طويل من السقوف المثلثة الزهرية اللون من الأكواخ.. عرفا منزل العمة من الاسم المدوّن على مدخل المنزل، إنه منزل عمته الكبرى.. وقفت سيرينا إلى جانبه على الممر المرصوف بالحجارة ثم دق جيسكار مقبض الباب وانتظر.

بعد وقت طويل ظنا أن السيدة العجوز في الخارج أو نائمة لكن فتح الباب الأمامي فجأة ليواجها اللايدي روزيلاند فيذرستون.

كانت ترتدي ما عرفت سيرينا فيما بعد أنه ثوب خاص بصيادي

السمك.. هذا الثوب الفضفاض من القطن الأزرق كان ملطخاً بالدهان.. كانت ترتدي تحته كنزة وسروال مخملي مضلّع.. كان لون بشرتها الناعمة كقشرة الدراق ويديها المليئتين بالنمش، تفضحان سنها الكبير.. لكن عيناها الزرقاوان لا زالتا ماكرتين، وعلى رأسها كتلة شعر رمادي رقيق.

قال جيسكار: مساء الخير.

تراجعت إلى الوراء قائلة:

ـ أدخل كريبتون.. من هذه؟ زوجتك الشابة؟

ـ هذه سيرينا فرايزر.. بإمكانك اعتبارها تحت وصايتي.

ـ همم..! أمر غير اعتيادي.. رجل في مثل سنك وصي على فتاة شابة حلوة؟ هذا غير مناسب أبداً.. كيف حالك آنسة فرايزر؟ أدخلا.

دخلا إلى الكوخ المؤلف من غرفتين صغيرتين وحجرة للغسل بالأصل لكنه الآن أصبح غرفة واحدة ومطبخاً في المؤخرة.. والباقي منظم كغرفة جلوس ومشغل.. والجدار تقريباً كله مخبأ بالكتب واللوحات وشاهدا عدداً من القطط الرشيقة المهيبة التي رفرفت عيونها وتثاءبت مع دخول الزوار.

سألها جيسكار وهي تقفل الباب وتلحق بهما:

ـ كيف عرفت من أنا؟

ـ تبدو تماماً كوالدي.. وكذلك كان ويليام ابن أخي الأكبر.. كلاهما كان نذلاً.. مع أن ويليام لا يلام لانغماسه في لهو الشباب.. لقد قتل وهو في الواحدة والعشرين.. وها أنذا في الثالثة والثمانين ومن المستبعد أن أموت بعد كما يبدو. اجلسا.. هذه الغرفة ليست لرجال في مثل حجمك.. لماذا أنت هنا؟

بينما كان جيسكار يشرح لها شردت أنظار سيرينا إلى قماشة مشدودة فوق حمالة ليست بعيدة عن مكان جلوسها.. يبدو أنهما قاطعا اللايدي روزيلاند عن عملها. سمعت رد فعل العمة على اقتراحه:

ـ يجب أن آخذ معي قططي الثلاثة!

ـ بكل ترحاب، لما لا؟

ـ حسن جداً سآتي في الغد لكن لفترة تجريبية فقط.. هل تفهم هذا؟

إذا وجدت أن كريبتون لا تناسبني ستضطران للبحث عن شخص آخر يمنع عنك الأقاويل.. أو.. تتزوجها.

أحست سيرينا بالدم الساخن يزحف ببطء من أسفل عنقها إلى الأعلى.. عندها قال جيسكار بجفاء:

- لم تجرب جناحيها بعد.. سيكون من المؤسف سجنها في قفص قبل حصولها على القليل من الحرية.

ردت العجوز بحيرة لاذعة:

- في شبابي لم يكن هناك شيء كهذا. المرأة كانت دائماً تعتمد إما على أبيها أو زوجها.. لو لم أكن قادرة على الرسم لما كنت حرة حتى الآن.

سألها: في أي وقت ترغبين بأن آتي لاصطحابك؟

- لن يكون هذا ضرورياً.. شكراً لك.. لا زالت رخصة قيادتي صالحة.. يمكن أن تتوقع وصولي وقت الغداء.. لن أقدم لكما الشاي.. لدي الكثير من العمل ما بين اليوم والغد.

- ربما نستطيع المساعدة؟

وقفت ونظرت إليه متفرسة:

- لا.. لا.. قد تعيقانني أكثر مما تساعدانني.. أنا سعيدة لأنك لم ترث شيئاً من أخي أو من والدك.. على الأقل ليس في المظهر. كان أخي جباراً ومتسلطاً وأنانياً.. وكان والدك عكسه ضعيفاً ومفلساً.. أنا لم أقابل أمك لكن مما سمعته عنها لم يكن لها شخصية قوية كذلك.. على أي حال لا شك أنك أقوى بكثير.. ستحتاج إلى هذه القوة لتنجح في بعث النظام من الفوضى التي زرعها جدك.

قال جيسكار في طريق عودتهما:

- ليس هناك أدنى شك في قوة شخصية تلك العجوز.. كل ما آمله أن لا يكون لديها نزعة التسلط.

نظرت إليه وهو مشدود الفك، لم يكن لديها أدنى شك فيمن سيكون المنتصر في أي صدام للإرادات بينه وبين اللايدي روزيلاند.

سألت: أتساءل لماذا أنكرها جدك ومنع ذكر اسمها؟

- اسألي السيدة روبي.. أتوقع أن تعرف.

سألت وهي تنظر إلى التوالف الهندسي للأبنية القديمة التي يمران بها.

- هل كل انكلترا هكذا؟

- لا ليست كلها.. هذا الجزء من البلاد لم تفسده الأبنية المرتفعة المرعبة، ولا ضغط المَزَارع الحديثة..

فاجأها جيسكار الذي بدا لها مشغول البال بأشياء كثيرة بأن أبعد يده السمراء البنية عن المقعد وربت على ركبتها بود بعد أن سمعها تتنهد:

- هذه تنهيدة عميقة «تشيكولا» ما الذي يشغل بالك؟

- أنا.. أنا.. كنت أفكر.. كم أن المنطقة جميلة هنا.. وآمنة.

- آمنة؟

- لا أفاعي ولا حشرات سامة ولا أسماك مفترسة ولا تماسيح.

- هذا صحيح.. لكن هناك أخطار أخرى..

لم تكن تعرف بماذا يفكر لكنها تذكرت فجأة موريا آرتشر وهي تقول بشيء من الدلال: لا شيء تخشاه في هذا الاتجاه.

أتمنى لو ينظر إليّ كما ينظر إليها! ثم أخذت تحدق متفرسة في جانب وجهه القوي المعالم.. وحول جيسكار بصره عن الطريق ونظر إليها بسرعة وهو يبتسم:

- أشعر بقلق مجدد فيك، لمسة حمى الربيع ربما.. في مثل سنك هذا الوقت من السنة له مثل هذا التأثير.

- لكن ليس في مثل سنك؟

أدرك لهجة السخرية الخفيفة واللاذعة التي جعلته يضحك:

- بلى.. أحياناً في مثل سني أيضاً.. لكنني هذه السنة لدي مشاكل أخرى.

لم ترض سيرينا فضولها بسؤال السيدة روبي عن سبب إبعاد اللايدي العجوز عن قصر أخيها. أحست لكونها غريبة أن لا حق لها بالتطفل على أسرار العائلة.

وصلت اللايدي روزيلاند إلى كريبتون ظهر اليوم التالي.. كان يشغل منزل الحارس في البوابة الغربية الجنائني الذي طلب من زوجته أن تتصل

بالقصر بعد أن تفتح لها الباب.. هكذا كان جيسكار وسيرينا بانتظارها عندما وصلت إلى المنزل.

كانت وراء مقود سيارة «بنتلي» وقططها الثلاث مستلقية فوق وسائد في المقعد الخلفي مما أصابهما بالذهول. ردت عندما أبدى جيسكار دهشته لأن القطط ليست في سلال خاصة بها.

ـ أوه.. لن يعجبها هذا. إنها تركب السيارة معي منذ أن كانت صغيرة. أليس كذلك حبيباتي؟

ثم فتحت الباب للقطط.. نزلت القطط إلى الأرض المرصوفة بالحصى بطريقة فخمة مقوسة ظهرها وممددة قوائمها الأمامية والخلفية. بعد أن دخلت اللابدي روزيلاند لحقتها قططها وأنزل پايروت حقائبها من السيارة. وأخيراً دخلت اللابدي المنزل الذي تركته منذ أكثر من ستين سنة.

بعد الغداء وخلال تناول القهوة على الشرفة الجنوبية، قالت: من الأفضل تشكيل انطباع بأن سيرينا هي تحت وصايتي بدلاً من وصايتك.. هذا ما يستدعي القليل من الشرح، ألا توافق على هذا؟

ـ بلى.. لقد خطرت لي الفكرة.

ـ تقول إنك لم تلتق بأحد بعد؟

ـ ابنة آرتشر فقط.

ـ آرتشر؟ أوه.. من «مالنغتون».

ـ لم يعودوا هكذا.. القصر الآن ملك لمليونير يدعى كاربنتر كما سمعت.

توقعت سيرينا أن تعلق عمته على دوران الأحداث، لكنها قالت:

ـ سأكون مهتمة بأن أقابله.. أي شخص يمكنه أن يجني ثروة في مثل هذه الأيام لا بد أن يكون رجلاً لديه قدرات فريدة.. أتريدني أن أزوره أم تفضل أن لا أختلط مع جيرانك حالياً؟ من الممكن أن يزورونا هم إذا لم نزرهم نحن، فأنا واثقة أنهم جميعاً فضوليون بشكل زائد لمعرفتك.

أثبت تحليلها صحته.. ففي الرابعة والنصف بينما كانوا يجلسون على الشرفة لتناول شاي بعد الظهر، جاء پايروت وقال لجيسكار إن زوجة

الجنائني عند البوابة الغربية أعطت تحذيراً بأن السيد كاربنتر وابنته دخلا أراضي القصر للزيارة. وسأل:

ـ هل أنت موجود في المنزل سيدي؟

رفع جيسكار حاجبيه لمرافقتيه: هل نحن في المنزل؟

لم ترد سيرينا ولوحت اللابدي روزيلاند بيدها تاركة القرار له.. فقال:

ـ أجل پايروت.. نحن في المنزل.

عندما التقت سيرينا بهيذر كاربنتر أحست بشفقة غريزية على شخصية تعوزها الثقة بالنفس. لكن فونتي كاربنتر كان كثير الثقة.. رجل صغير الجسم ممتلئه، يتقدم بسرعة وحبور للمصافحة.. وكأنه في منزله لا معتد بنفسه ولا خنوع.

لكن ابنته كانت مختلفة فمع أنها في أواخر العشرينات من عمرها، إلا أنها كانت خجولة بشكل مؤلم.. لكن كان يبدو أن لديها عدة صفات جيدة.. من بينها بشرة رائعة ويدين صغيرتين رقيقتي التكوين بأظافر على شكل البندق. لكن ملابسها وحذاءها كانت لامرأة متزمتة من العصور الوسطى، بينما اللابدي روزيلاند وسيرينا كانتا ترتديان ثياباً عادية وهادئة، قميص قطني وسروال.. وجدت هيذر الجلوس في الشمس لا يطاق لأنها كانت تلبس بلوزة مصنعة من خيوط صناعية وبذلة ربيعية.. وقال جيسكار بعد أن لاحظ أن جبينها وأنفها بدآ بالتعرق:

ـ هل أنقل لك كرسيك إلى الظل آنسة كاربنتر؟

قالت متلعثمة بسرعة لأنها أصبحت مركزاً لاهتمامه، فقد خنقت موجة إحراج حمراء وجهها الزهري:

ـ الطقس حار اليوم أليس كذلك؟ أتمنى لو أستطيع أن أكتسب السمرة مثلك آنسة فرايزر.. مهما كنت حذرة تحترق بشرتي دائماً إن عرضتها للشمس.. والسبب شعري الأصهب.. كل من له لون بشرتي لا يمكن أن يُرَى مسمراً ولو قليلاً.

حرك جيسكار كرسيها إلى الظل تحت مظلة حديقة قديمة أخرجها لهم پايروت من المخازن مع الكراسي القماشية الطويلة.. ثم نقل كرسيه

www.elromancia.com

معها:

ـ هاك.. هذا أفضل لك.

قالت سيرينا: لن أسمي شعرك بالأصهب آنسة كاربنتر بل إنه لون الخشب الماهوغاني الفاتح.

بدت الدهشة على هيذر والسرور معاً:

ـ أوه.. حقاً؟

ثم صاحت رعباً لأنها كادت أن ترتمي إلى الخلف بجسدها السمين بعد أن تمزق القماش تحتها لولا وجود جيسكار الذي أمسك بها.

ـ أوه.. أنا آسفة جداً يا صاحب السعادة.

قال: ليست غلطتك.. بل غلطة هذه الكراسي العتيقة.

ثم ترك معصمها الذي أمسكه حتى ساعدها على الوقوف:

ـ هل آلمتك؟ لكن كدمة معصم أفضل من كدمة الرأس لو أن الكرسي تحطم تماماً تحتك.

نظرت الفتاة إليه بإعجاب:

ـ أوه.. أجل.. شكراً لك.. كم كنت سريعاً.

في الأمس صدمت سيرينا بالتشابه بين جيسكار وموريا.. أما اليوم فقد صدمها الاختلاف الصارخ بينه وبين هيذر.. فهو طويل وواثق من نفسه، وهي قصيرة بدينة وخرقاء وكأنها فتاة في نصف عمرها.

مال جيسكار متفحصاً القماش الأخضر فوق كرسيه:

ـ خذي هذا الكرسي، يبدو لي قوياً.

في تلك اللحظة وقبل أن يستقيم جيسكار رأت سيرينا نظرة رقة في عيني هيذر فأعلمها حدسها أنها بداية حب من أول نظرة.. كان واضحاً لها أن ابنة المليونير «البيتوتية» تواجه فتى أحلامها.. لكنها تعلم أن أشواق هيذر لن تكون أكثر بؤساً من أشواق سيرينا؟

قد تكون بليدة الحس وخرقاء.. لكنها وريثة.. كما قال جيسكار.. والعديد من بنات الأثرياء البشعات حصلن على لقب وقصر عن طريق ثراء الآباء.

قبل مغادرة الأب وابنته سمعت سيرينا جيسكار يذكر لهيذر اسمه

الأول ويدعوها لاستخدامه.. ربما كانت هذه وسيلته لمنعها من تكرار تسميته «بصاحب السعادة». كان يجب أن تناديه كما نادته موريا آرتشر في اليوم السابق فاسم «صاحب السعادة» و «سيدي اللورد» هما لاستخدام الخدم فقط لا لمن هم متساوون معه.

مع ذلك ومع أن السيد كاربنتر دعاهم للعشاء في «مالينغتون هال» متوجهاً إلى جيسكار بصاحب السعادة فلم يرفع الكلفة التي طلبها من ابنته.

قالت اللايدي روزيلاند بعد رحيل الضيفين:

ـ كما توقعت.. رجل مثير جداً للاهتمام.. ابنته بحاجة لأن تخفف من وزنها وعليها فعل شيء لرموشها.. إنها تذكرني برموش الخنزير المستقيمة.. عدا هذا فهي ليست سيئة.

عاد جيسكار بعد وقت قصير من إيصالهما إلى سيارتهما الرولز رويس.. وقال:

ـ مع ملاءمة اقتراحك بإعطاء الانطباع أن سيرينا هي تحت وصايتك عمتي روزيلاند، إلا أن هناك ثغرة في الخطة لم تخطر ببالي من قبل.

ـ حقاً؟ وما هي؟

ـ ألم تلحظي هذا أيضاً سيرينا؟ عندما أبدت هيذر إعجابها بسمرتك؟

ـ أتعني لماذا كلانا بنيّ البشرة بينما المفروض أنني أعيش مع اللايدي وهي ليست سمراء؟

ـ بالضبط.

ـ لا.. لم تخطر ببالي ساعتها.. لكنني موافقة أن هذا شيء من الطبيعي أن يلاحظه أي شخص كان ويتساءل حوله.

قالت العمة: لكن من السهل شرح السبب.. كلاكما كنتما تعيشان في بلاد حارة ولا ضرورة أن تكونا معاً.. ولن يعلم أحد بشيء سوى أن موت والدك حدث مؤخراً.. وهو وضعك تحت وصاية جيسكار وهو بدوره اصطحبك إلى هنا ووضعك تحت وصايتي.. ليس هناك أي أمر غير عادي في هذا.. فقط المدة الطويلة التي قضيتماها معاً هي التي ستثير الشائعات وتؤثر على سمعتكما في بعض الأعين يا بني.. لكن ليس في عيني من هم من جيلكما.. فتيات اليوم هن أحرار بالتصرف كما يحلو

لهن..

قال جيسكار بصوت سلطوي:

ـ في العشرين من عمرها.. أجل.. لكن سيرينا لا زالت صغيرة جداً.. وأفضل أن تبقى سمعتها نظيفة في نظر الجميع.

استرعى انتباهه طيف في مكان بعيد وقال:

ـ أرى أننا سنستقبل زائراً آخر.

تبعت المرأتان نظراته، وتعرفت سيرينا على موريا وهي تعبر الحديقة على ظهر جوادها.. في مكان ما كان هناك سياج وبوابة حيث تركت موريا مطيتها وسارت ما تبقى من المسافة.

اليوم كانت ترتدي قميصاً قطنياً بلون السماء ومنديلاً زهرياً حول عنقها.. الحرارة بعد ظهر اليوم هي أكثر ارتفاعاً عما كانت عليه صباح الأمس عندما قابلاها.

قالت وهي تصعد الدرجات القصيرة التي تصل إلى الشرفة:

ـ مساء الخير.. جئت لتقديم دعوة من والديّ.. إنهما..

لمحت اللايدي روزيلاند.. فصمتت متوقفة في مكانها. قدمها جيسكار لعمته الكبيرة ووجدت سيرينا نفسها تقارن ثقة موريا بنفسها مع ارتباك هيذر.. وتساءلت ماذا ستقول اللايدي روزيلاند عنها.

بعد ثلاثة أيام تناول الثلاثة العشاء في «برايك هاوس» على تخوم الأملاك التي يملكها الآن السيد كاربنتر. كانت المناسبة محنة لسيرينا مع أنها لم تكن خجولة بطريقة غير عادية.. فلقد وجدت نفسها في حفل عشاء السير آرثر واللايدي آرتشر بين ستة عشر مدعواً كلهم ما عدا ابنتهما أكبر سناً منها بعدة سنوات وهم أفراد طبقة أرستقراطية ريفية.. بدا لها من أول نظرة أنه ليس هناك أي قاسم مشترك بينها وبينهم. كافحت لتحافظ على حديث معقول مع الرجلين المسنين الجالسين إلى جانبيها طيلة فترة الطعام. لكنها فيما بعد عندما كانت تشرب القهوة في غرفة الاستقبال في فنجان صيني رقيق فاخر وصغير، فكرت بأسف بأكواب القهوة الكبيرة التي كانت تشرب منها مع جيسكار بعد العشاء على متن «الرين».

في طريق العودة قاد جيسكار سيارة عمته فجلست المرأتان في

الخلف. دهشت سيرينا وارتفعت معنوياتها عندما عرفت أن اللايدي روزيلاند لم تجد الأمسية ممتعة أبداً، مع أنها تجد سهولة بالتكيف مع أي محيط.

قالت معلقة:

ـ بالنسبة لي ليس هناك من موضوع أكثر سأماً من السياسة.. ما رأيك جيسكار.

ـ أجل.. إنه موضوع ثقيل الظل أحياناً.. خاصة من النساء الكالحات الوجوه والناعقات الأصوات.

لكنه لم يجد موريا ثقيلة الظل كما لاحظت سيرينا.. لم تجلس قربه خلال العشاء لأنه جلس إلى يمين أمها، وجلست هي في منتصف الطاولة.. لكنهما فيما بعد تحدثا مطولاً وجهاً لوجه في زاوية منفردة من غرفة الاستقبال، فلاحظت سيرينا أنها جعلته يضحك عدة مرات.

منذ اللحظة الأولى التي دخلت سيرينا فيها إلى المكتبة المسماة «لونغ لايبرري» أصبحت المكان المفضل لها في المنزل الكبير. كانت المكتبة الطويلة تبلغ أكثر من مئة قدم طولاً وقيل لها إنها تحوي عشرين ألفاً من المؤلفات إضافة إلى مجموعة كبيرة من اللوحات الزيتية المرسومة بيد فنانين من القرنين السادس عشر والسابع عشر ومطبوعات مخطوطة.. للمكتبة نوافذ طويلة على جانب واحد، ورفوف كتب على طول الجانب الآخر.

بعد ظهر أحد الأيام كانت سيرينا مكورة على الأرض في الرواق الأعلى مستغرقة في كتاب حين دخل جيسكار وعمته من الباب الماهوغاني المزدوج الطويل.

وكما هي الحال دائماً كانا يتناقشان بأمر كريبتون ومستقبله.. لم تجد سيرينا أي سبب يجعلها تعلن عن وجودها لهما فهما لا يتحدثان في شأن خاص، ولو تقدما نحو الباب الآخر من جهتها فسيريانها حتماً بأنفسهما.

لكنهما وصلا فقط إلى نصف المسافة.. وتوقفا هناك لفترة قصيرة.. ثم عادا إلى الباب عينه.

هناك حيث ابتعدا عن نظر سيرينا لكن ضمن مدى السمع سمعت العمة تقول:

ـ ما تحتاج إليه عزيزي إذا كنت تريد أن تجري الأمور هنا كما يجب هو زوجة تتولى الإشراف على تنظيم الداخل بينما تهتم أنت بالمبنى والأملاك.

رد جيسكار: أجل.. أنت على حق. لقد فكرت بهذا بنفسي.. كريبتون يحتاج إلى سيدة له.. وأنا أحتاج إلى زوجة.

قالت اللايدي روزيلاند:

ـ وأظن أنك لن تحتاج إلى السعي بعيداً.

ـ لكن ليس باتجاه «مالينغتون».

ـ لا.. لا.. لم أكن أقترح هذا. مع أنه سيعيد غلطة أبيك.. لم أكن أفكر بابنة كاربنتر.. فالثروة التي ستحصل عليها يوماً ستكون مفيدة لكنها ليست مهمة في نظري أكثر من زوجة ساحرة وذكية.

ـ وفي نظري كذلك.

ـ حسناً.. في هذا السياق كريبتون.. بالتأكيد ستوافق أن هناك خياراً واحداً معقولاً؟ إلا إذا كنت تنوي السعي إلى زوجة في مكان أبعد مما أفكر فيه.

ـ لا.. لكنني لم أكن واثقاً أن أتوقع الموافقة على اختياري.

ـ من كل قلبي! لو كنت مكانك لانطلقت في السعي فوراً!

ـ لا أعتقد هذا.. لأنني أنوي أن أؤخر الأمر قليلاً..

وابتعدا عن سمع سيرينا تاركين سعادتها مع كتابها وما يحيط بها مشتتة بما سمعته.

إذن موريا آرتشر ستكون الماركيزة الجديدة لكريبتون.. ولو لم يكن فوراً. ربما قراره بالتأخير سببه تردده في التخلي عن حريته.. هذا على الأقل فيه شيء من الارتياح.. أم لا؟ لكن كيف حتى لمصلحة استمرارية كريبتون يمكن أن يتزوج من دون حب؟

في اليوم التالي بعد الفطور مباشرة جاء جيسكار يبحث عن سيرينا فوجدها في باحة الاسطبل:

ـ تريد كارولين أن تكلمك.. ولم أتركها تنتظر على الهاتف فقلت لها إنك ستعيدين الاتصال بها.

سألت بدهشة: لماذا تريد أن تكلمني يا ترى؟

ـ لا أعرف.. لم تقل لي.

بدا الانشغال على جيسكار كما هو في الواقع مؤخراً. كانت تفكر وهي ذاهبة لتتصل بكارولين وأخذت تتنهد وهي تفكر بحياتهم الخالية من الهموم في الانديز الغربية.. قبل أن يقع حمل كريبتون على كتفي جيسكار.

كانت أولى كلمات كارولين بعد تبادل التحيات:

ـ أتساءل عما إذا كان بإمكانك المجيء لنجدتي.

ـ بكل تأكيد.. لكن بأية طريقة؟

ـ دوروثي، مربية الأولاد، تبغي العودة إلى بلدها لتكون في منزلها لأن أمها مريضة في المستشفى.. وكنت أتساءل ما إذا كنت سترضين بأن تساعديني مكانها لبضعة أيام إلى أن أجد بديلة دائمة؟ المسألة أننا في دوامة من التحضير لاستقبال زبائن من خارج البلاد ولا أستطيع رعاية الأولاد والاهتمام بالضيوف معاً.. أعرف أنني جريئة في طلبي هذا منك سيرينا لكنني في الواقع وصلت إلى أقصى درجات تحملي.

ـ ليس في الأمر جرأة أبداً.. سأكون مسرورة بالمساعدة. متى تريدين مني المجيء؟ في الحال أتصور؟

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ لا أرى سبباً يمنع.. لكن من الأفضل أن أكلم جيسكار واللايدي روزيلاند، وأنا واثقة أنهما لن يعترضا.

ـ أخشى أن لا أتمكن من المجيء لاصطحابك.. لكن يستطيع جيسكار أن يوصلك إلى أقرب محطة للباصات.

ذهبت سيرينا تبحث عن جيسكار بعدما سجلت أوقات مرور الباصات.

لكن إيجاد أي شخص في قصر كريبتون يستغرق وقتاً.. أخذت تدور في المنزل وتبحث في الأماكن الأكثر احتمالاً لوجوده، تساءلت كم ستغيب.. هل سيشتاق إليها.. أم أن غيابها سيريحه؟ هل يتوق لإبعادها من بين يديه؟ إذا كان الأمر هكذا فهو بارع بإخفاء مشاعره.. لكنها كانت

تعي أنها إعاقة أخرى على جيسكار الذي يعيش في عزلة عن العالم بمحض إرادته.

أخبرها پايروت أين تجد جيسكار مشيراً إلى سقيفة الجناح الغربي.. هناك وفي الغرف العفنة المليئة بخيوط العنكبوت، وجدته يفتش بين كومة من الأثاث القديم المغطى بالغبار.. قال عندما انضمت إليه:

- هناك قطع رائعة هنا، أفضل بكثير مما نستخدمه في الغرف السفلية.

أخبرته سيرينا الغاية من اتصال كارولين بها.. فقال:

- لا داعي لركوب الباص.. سأوصلك بنفسي بعد الغداء.

- أوه لا.. أرجوك، لا تزعج نفسك هكذا. لن أتوه.. أخبرتني كارولين كيف أستقل سيارة أجرة من موقف الباص إلى منزلها.

- لن يزعجني هذا أبداً. لدي أعمال عدة أقوم بها في لندن بنفسي.. ساعديني في نقل هذه الطاولة، أتسمحين؟ أريد الوصول إلى كرسي أراه في مؤخرة هذه الكومة.

في الساعات الأخيرة من ذاك الصباح، ساعدته في إخراج عدد من الطاولات والمقاعد وعدد آخر من الساعات الرائعة من بين الأثاث المهمل.. وأيضاً رفع منضدة صغيرة من فوق خزانة أدراج منخفضة:

- هاك.. يمكن لهذه أن تتناسب مع غرفتك بدلاً من أن تهترىء هنا. إنها منضدة عمل «امبراطورية» فرنسية.. يمكنك الاحتفاظ بأدوات الخياطة فيها.

ذهلت سيرينا: كيف تعرف كل هذه الأشياء؟

أشارت إلى القطع الأخرى التي انتقاها.. فرد عليها:

- في شتاء لندن كل المتاحف مجانية ودافئة وهادئة لأي شخص عاطل عن العمل، وإن أمضى المرء ما يكفي من الوقت فيها فسترسخ في ذهنه معلومات كثيرة.. عندما كنت صبياً صغيراً كنت أمضي وقتاً طويلاً فيها.

قبل نصف ساعة من الغداء عادا إلى الطابق السفلي، جيسكار يحمل منضدتها وهي تحمل إحدى الساعات والباقي سيؤتى به فيما بعد.

عند الغداء طلب منها الاستعداد في الساعة الرابعة مما يعطيها وقتاً طويلاً لتوضب حقيبتها.. ولتنظف المنضدة الفرنسية الأمبراطورية وتلمعها

بكل محبة.. هذه السنوات من الإهمال في السقيفة جعلت لمعانها يزول.. لكنها لم تفسد جمالها المعتق.. ازدادت سعادتها بها عندما اكتشفت أن هناك درج مليء بكل أنواع القطع المختلفة المثيرة للاهتمام من بكر خشبي عليه دمغة «خيوط فارسية» و«خيوط لامعة»، إضافة إلى مقص تطريز مشحوذ جيداً له مقبضين من اللؤلؤ الأصلي.

في إحدى الأمسيات بعدما مضى على وجودها في لندن أسبوعين، تساءلت كم سيمضي من الوقت بعد حتى تستخدم كارولين مربية أخرى.. اتصل جيسكار وقال إنه سيأتي بعد عشر دقائق.

كانت سيرينا وحدها في المنزل مع الأولاد، أخفضت صوت التلفزيون قبل الرد على المكالمة.. لكنها أطفأت الجهاز وأسرعت إلى غرفتها لتجهز نفسها للقائه.

كانت غرفة الاستقبال في الطابق الأول مثل العديد من المنازل الإنكليزية فاستطاعت مراقبة وصوله من إحدى النوافذ. ما إن رأته حتى تسارعت نبضات قلبها وشعرت بأن كل شيء يعود إلى دائرة الضوء، بعد أن أصبح ضبابياً قليلاً خلال الأسبوعين المنصرمين.

وصل بسيارة أجرة ونزل على الرصيف وفتش في جيب سرواله عن مال يدفعه لأجرة السيارة، رأت سيرينا أنه يرتدي سترة سهرة.. من الواضح أنه لم يرتد هذا اللباس لقضاء أمسية معها.. لا شك أنه ذاهب إلى مكان آخر.

عندما اتجهت لتفتح له الباب تحولت بهجتها إلى خيبة.. فرؤيته لوقت قصير أسوأ من عدم رؤيته أبداً.

- مرحباً سيرينا.. كيف حالك؟

- أنا بخير تماماً.. شكراً لك.. وأنت؟

- بخير.. شكراً.

- تبدو رائعاً.

التوت شفتاه تسلية قبل أن يحني رأسه ويقول:

- أنا مسرور لأنني حظيت بإعجابك.. القميص لي لكن ما تبقى استأجرته من عند خياطي.. لم يكن هناك وقت لتجهيز ثياب سهرة لي.

ـ أنا مندهشة لوجود قياس يناسبك.. فأنت أطول بكثير من معظم الناس.

تبعها صاعداً السلم:

ـ أوه.. هناك قياسات لكل الأحجام والأشكال.

ـ واللايدي روزيلاند.. هل هي بخير؟

ـ أجل.. وترسل لك أفضل تمنياتها.. وتعليمات لك لثقب أذنيك.

نظرت إليه بدهشة بعد وصولها إلى أعلى السلم:

ـ ولماذا تريدني أن أفعل هذا؟

ـ أظنها تفكر بأن تهديك قرطاً في عيد ميلادك القادم.

سألته في غرفة الاستقبال: أتشرب شيئاً؟ ماذا تحب؟

ـ قهوة.. أرجوك.. هل أساعدك؟

ـ شكراً لك.

راقبته وهو يسكب القهوة.. قميصه الأبيض والسترة السوداء كانا متناسبين بشكل رائع مع وجهه البرونزي القاتم.. الطقس الحار الذي استقبلهما هنا بعد عودتهما من الكاريبي ساهم في الحفاظ على لونهما.. لكن جيسكار كان دائماً الأكثر سمرة..

أوشكت سيرينا أن تسأله إلى أين هو ذاهب حين سألها:

ـ هل أنت سعيدة ومرتاحة هنا، تشيكيلا؟

ـ أنا مرتاحة جداً.

ـ لكنك لست سعيدة؟

ـ لست تعيسة، لكن بالرغم من وجود حديقة كبيرة هنا فأنا أشتاق أحياناً للأراضي الشاسعة والغابة..

وأضافت في نفسها: وأشتاق إليك أكثر.

ـ هذا صحيح.. وأعتقد أنك مع استمرار هذه الموجة الحارة ستشتاقين إليها أكثر.. لكن لندن لديها الكثير مما يمكن أن توفره لمن هم في مثل سنك.. أنا وعمتي كنا نقلب الرأي في بعض الأمور، ونعتقد أنه من الأفضل لك البقاء مع كارولين لتستفيدي من الدروس المسائية المتوفرة هنا. كما يمكن حضور دروس نهارية.. على كل فتاة أن تتمكن من

الوقوف على قدميها وحدها عند الضرورة.. ومع الطباعة والاختزال وربما شهادة في التفصيل ستكونين مؤهلة، ما رأيك في هذا؟

صدمها هذا كصدمة يوم القيامة لكنها أخفت خيبتها.

ـ قد تفضل كارولين أن يكون لها مربية مناسبة.

ـ أشك في هذا.. إن كلمتها في الغد فستتمسك بالفكرة على ما أظن. في الأيام العادية سيكون لديك وقت فراغ أكثر من الآن وهي مشغولة برعاية الزبائن اليابانيين ومرافقتهم.

أشار إليها بالجلوس ثم جلس بدوره وتابع:

ـ قد لا تسير الأمور دائماً هكذا لكن المربية من المفترض أن تُعامل كابنة في المنزل.. ليس كموظفة بدوام كامل.. وبكل تأكيد ليس كخادمة لكل الأعمال.. في الظروف العادية كارولين امرأة «بيتوتية»، لا تريد سوى إبعاد الأولاد من بين يديها لبضع ساعات كل يوم.

ـ حسن جداً.. سأسألها.. أعرف أن عليّ أن أكون مستقلة.. لقد توليت رعايتي طويلاً... كم كنت أتمنى لو أستطيع أن أكون أكثر إفادة في كريبتون.

ـ ربما سيكون هناك طريقة.. فيما بعد.. أما الآن فمن مصلحتك أن تحصلي على بعض المؤهلات خاصة وأنك لا تملكين أية أوراق تثبت أنك قادرة على القراءة والكتابة وما إلى ذلك.

ـ وهل ستبقى اللايدي روزيلاند؟

ـ أجل.. لقد أعجبها المقام هناك.. وأنا اعتدت على وجودها. ليس لديها تصرفات متعبة بالمقارنة مع من هم في مثل سنها، خاصة وأنها في صحة جيدة ودماغها يعمل جيداً.. على أي حال نحن متفقان تماماً وأرحب بإقامتها في كريبتون طالما أنا هناك.. كم سيكون هذا علمه عند الله.. فأنا لا زلت أتلقى النصائح.. آخر بحث تقدمت به «جمعية البيوت التاريخية» لم يكن مشجعاً..

قاطع رنين الهاتف كلام جيسكار. بينما وقفت لتجيب أفرغ فنجان قهوته وقال:

ـ يجب أن أذهب الآن.. اتصلي بي غداً وقت الغداء لتخبريني برد

كارولين.

ـ أوه.. لكن الهاتف لن يستغرق دقيقة.. هل يجب أن تذهب سريعاً؟

ـ أجل.. هذا أفضل.. لا أستطيع الحصول على سيارة أجرة فوراً في مثل هذا الوقت من الليل.. لا تظهري مثل هذا الإحباط.. سيأتي دورك.. ساندريلا.

ربت على كتفها وتمنى لها ليلة سعيدة وخرج. التفتت سيرينا بإحباط والتقطت السماعة.

إلى أن شرحت للمتكلم أن الزوجين سيتوين ليسا هنا وسجلت اسم المتكلم ورسالته كان جيسكار قد ابتعد عن النظر.. رفعت فنجان قهوته عن الطاولة وباندفاع وضعته على شفتيها مع أنها لا تدري من أية جهة شرب.

ذهبت إلى الفراش مبكرة تفكر بإمكانية أن لا يبقى هو في قصر كريبتون طويلاً.. في هذه الحالة لن يحتاج لأن يتزوج من موريا.

***

٧ ـ لا شيء يداوي جرحها

عملت سيرينا بكل جهدها في دراساتها في الأشهر القليلة التالية التي شملت لغة أمها الأصلية وقدمت كل ما باستطاعتها لإفادة كارولين وتعلمت كيف تشق طريقها في لندن.

سمعت مرة كارولين تقول لصديقة على الهاتف:

ـ أوه يا عزيزتي.. يا لهذا الإزعاج لك! كل هذه المشاكل انتهت بالنسبة لي عندما بقيت سيرينا معنا. الأطفال متعلقين بها.. بالإمكان الاعتماد عليها كلياً ولم نعد نشعر الآن أن هناك وجود غريب في بيتنا.. كم أتمنى أن أبقيها إلى الأبد لو استطعت.. لقد أصبحت كشقيقة صغرى لي.. لكنها بالطبع سينبت لها جناح في النهاية.

شعورها بأن هناك من يحتاج إليها ويقدرها حق قدرها كان أمراً رائعاً.. ما سمعته أدفأ قلبها لكنه كذلك جعلها تعي أن الأروع كان لو أن المكان الذي يحتاجها هو كريبتون.

كانت تقضي كل نهاية أسبوعين ليلة هناك، تترك لندن صباح السبت وتعود ليل الأحد.. لكن هذه الزيارات المنتظمة كانت بناء على إلحاح اللايدي روزيلاند لا جيسكار.

أحياناً كانت تجد لوحة معلقة في غرفة نومها لم تكن من قبل أو قد تكون زينة مثل القرن الزجاجي المتعدد الألوان الذي وجدته على طاولة الزينة المليء بورود مشمشية اللون من حديقة اللايدي كريبتون الراحلة.

سألت سيرينا السيدة روبي عندما التقت بها على السلم:

ـ هل اقتطفت الورود لي سيدة روبي؟

www.elromancia.com

ـ أجل آنسة سيرينا انها تدعى «بيل آمور» بالفرنسية الحب الجميل..
كانت المفضلة لدى سعادتها. قالت لي مرة إنها أحضرتها إلى انكلترا من حديقة دير في مكان ما من ألمانيا لكنها كانت ورود مغروسة ومعروفة منذ أيام الرومان.

ـ والزهرية.. هل هي من غرفتها؟

ـ لا.. لا أذكر رؤيتها من قبل.. لقد وجدها سيدي اللورد في مكان ما واعتقد أنها ستعجبك في غرفتك.. بعض الناس لا يهتمون بوجود أزهار في غرف نومهم وهم نيام.

ـ حقاً؟ لكنني أفضل أن تتركيها هناك.. فرائحتها جميلة جداً.

في نهاية الأسبوع لم تشاهد جيسكار حتى وقت الشاي في الرابعة بعد الظهر.. عادة كان جيسكار يظهر قبل أن ينهي بايروت تحضير الطاولة ويشعل الشعلة الصغيرة تحت الغلاية النحاسية حتى يغلي ماؤها ثم تقوم اللايدي روزيلاند بملء إبريق شاي فضي. لكنه هذه المرة تأخر وعندما وصل لم يكن وحده.

كانت هيذر معه وكانت أنحل بكثير من آخر مرة رأتها فيها سيرينا أي منذ خمسة أسابيع.

بينما كان جيسكار منهمكاً بسماع حديث تقوله السيدة روزيلاند تكلمت هيذر مع سيرينا قائلة:

ـ لقد خسرت أربعة كيلو غرامات في أسبوعين بعد أن ذهبت إلى منتجع صحي، وثلاثة أخرى منذ عدت من هناك. لكن الطريق طويل أمامي حتى أصبح نحيلة مثلك.. وأخشى أن لا أتمكن أبداً من تناول الخبز بالزبدة والكايك بالسكر بعد الآن.

ـ أوه.. أظنك ستعاودين أكلها بعد أن يعتدل وزنك..

قالت اللايدي العجوز:

ـ أنا أعزو طول عمري إلى تناولي كل ما تنتجه الطبيعة من طيبات.. لكن فقط إذا حضرتها في مطبخي أو على يد طاه ماهر.. ولا آكل شيئاً تنتجه المصانع.

قالت هيذر: أعتقد أن لديك دورة تجدد للخلايا فعالة جداً لايدي

روزيلاند.

هذا القول أدهش سيرينا.. قبل هذا كانت مشاركة هيذر بالأحاديث تنتزع منها انتزاعاً كرد على أسئلة.. ولم تجرؤ يوماً على إبداء رأي في أي موضوع.

ردت اللايدي العجوز: لا أعرف شيئاً عن هذا.. لكنني بالتأكيد أملك تفكيراً سليماً أكثر من بقية الناس.. فأنا لم أتناول دواءً حتى اليوم. عندما لا أستطيع النوم أقرأ كتاباً، إذا أصبت بالإمساك أخرج لمسيرة شاقة بدلاً من ابتلاع المسهّل.. تذوقي هذا الكايك الممتاز بالزنجبيل يا طفلتي.

قال جيسكار ضاحكاً:

ـ من الأفضل أن لا تتذوقه، لأنه مليء بالمكونات الممنوعة.. وماذا عنك هيذر؟

ـ لا.. شكراً لك.

قد تكون هيذر خسرت من وزنها واكتسبت الثقة بالنفس. لكنها لم تستطع إخفاء تصرفاتها المتكلفة.. والتي ربما كانت قد غرست فيها على يد أمها الراحلة وليس من والدها فقط.

لكن سيرينا كانت تحب أن تناديها اللايدي روزيلاند بالطفلة لأن هذا يعطيها الإحساس بأنها فرد من العائلة.. في نفس الوقت شعرت أن هذه الكلمة طريقة تخاطب للتركيز على صغر سنها. وفي كل مرة تحضر فيها إلى كريبتون كانت تحاول الظهور بمظهر أكثر نضوجاً من المرة السابقة وأكثر دهاء.

لم تتح لها فرصة أن تذكر له موضوع القرن الزجاجي إلا بعد أن نزلت إلى العشاء تلك الليلة.. فقال:

ـ لا زلت أجد صناديق وخزائن وأدوات شاي لم تفتح بعد منذ سنوات لا تحصى.. في نفس الصندوق الذي وجدنا فيه القارة في غرفتك نفضت الغبار عن بعض البرونزيات وأحضرتها إلى غرفتك.

ـ أنت واللايدي روزيلاند؟

ـ لا.. كانت موريا تساعدني.

كم من وقت تقضيه الآن في كريبتون؟

مع أن هناك أكثر من شخص قد يزودها بالرد على تساؤلها إلا أنها لم تطرح أية أسئلة.

تذكرت تلك الليلة وهي مستلقية في سريرها إشارة جيسكار إلى «غرفتك» وتمنت من كل قلبها لو تكون غرفة النوم حقاً غرفتها.. لكن مع أنه سيبقى مرحب بها دائماً في كريبتون بالنسبة له ولأنه ينظر إليها كطفلة ولا يعي مشاعرها نحوه، إلا أنها تعرف أن زوجته لن تكون عمياء مثله.. ثم عندما يتزوج فهي نفسها لن تأتي إلى القصر، فمن المؤلم أن تراه مع زوجة.. ولو كان الزواج دون حب..

حاولت التفكير بدليل ملموس تبدي فيه امتنانها لعنايته بها.. وكان عطر ورد «الحب الجميل» «بيل آمور» هو الذي أعطاها الرد على المشكلة.

كانت السيدة روبي هي الشخص الوحيد الذي أفضت إليه بخطتها.. ومنها عرفت أن هناك رجل عجوز يعيش في قرية كريبتون سانت ماري، كان فيما مضى جنائنياً أيام اللايدي كريبتون.. وما إن سنحت لها الفرصة لزيارته حتى ذهبت لتقابله دون معرفة أحد.. ذاكرته لا زالت حافظة لكل النبتات التي كان يعتني بها.. تمكنت بمساعدته من تحديد هوية كل الأنواع التي تنمو في حديقة الورود.

بعد أن حددت الأنواع أمضت بعض الوقت تبحث في تاريخها قبل أن تكتب كرّاساً حول حديقة الورود.. ثم طبعت هذا الكتيب، بترتيب ووضوح على آلة طباعة اليكترونية، وغلفته بغلاف صممته ورسمته بنفسها وقدمته إلى جيسكار هدية الميلاد.. في هذا الوقت كان قد قرر فتح القصر للعامة وتمكنت أن تقول له وهي تقدم له هديتها:

ـ ربما تستحق مقتطفات من هذا أن توضع ضمن كتاب دليل لكريبتون.

قرأ نصف صفحة من الكراس قبل أن ينظر إليها، ويقول:

ـ إذا كنت قادرة على إنتاج شيء كهذا.. فلماذا لا أوكل لك مهمة كتابة الدليل.. لا بد أنك كنت تحضرين هذا منذ بعض الوقت.. سنطبعه ككتيب ملحق بالدليل لإرضاء زوارنا المهتمين بعلم الحدائق.

ـ أوه لا.. إنه ليس جيداً بما يكفي لهذا.. لكنني فكرت بعدما عرفت مدى تعلقك بجدتك أنك ستحب إحياء ذكرى حديقتها.

ـ شكراً لك سيرينا.

وانحنى ولثم خدها بخفة، تحية أشعلت لهيباً داخلها دام معها ما تبقى من اليوم.

صباح عيد الميلاد خرج الجميع إلى حفل غداء في منزل يبعد بضعة أميال، كان بين المدعوين آل آرتشر.. كان لسيرينا إحساس عميق وهي تراقب جيسكار وموريا يتحدثان أنه قد قرر أخيراً البقاء في كريبتون، وأن تحركه التالي سيكون حصوله على زوجة.

لم تره ليلة رأس السنة الجديدة لأنها وعدت بأن تساعد كارولين في حفلتها وتبين أن جيسكار قبل دعوة أخرى قبل ذكر كارولين للحفلة.

منذ ذلك التاريخ عاشت في توقع دائم أن تسمع خبر خطوبته.. لكن مع مرور فصل الشتاء ولم يحدث شيء من هذا بدأت تأمل في أن لا يكون إحساسه بالواجب قد أوصله إلى التخلي عن حريته.

في ليلة ذهبت سيرينا إلى حفلة مع شقيق فتاة التقتها في صفوف اللغة الإيطالية ولم تعد حتى ساعات الصباح الأولى.. بسرعة خرجت من السيارة تغلق باب السيارة تحاول بقدر استطاعتها وبهدوء تام أن لا تزعج العائلة النائمة وجيرانها.

انحنت على النافذة لتذكر الشاب بأن لا ينطلق بصخب كعادته ووضعت أصبعها على فمها فأحنى رأسه متفهماً.. وتبادلا التلويح المودع الأخير ثم انتظرها إلى أن فتحت الباب وانطلق بأقل قدر ممكن من الهدوء.

رأت النور الأحمر للمصباح الصغير على الطاولة وهو يعطي جواً ناعماً للردهة.. أقفلت سيرينا باب المنزل خلفها، وضغطت القفل ثم وضعت سلسلة الأمان في مكانها.

سألها من ورائها صوت منخفض أجش:

ـ أين كنت حتى هذه الساعة؟

استدارت شاهقة فرأت جيسكار يقف أمام النور المنبعث من

المطبخ . . لم يصل النور إلى حيث يقف . . كان للحظات وقبل أن يتحرك مجرد صورة منعكسة لرجل في إطار الباب لكنها تعرفت عليه فوراً .

كان رد فعلها الفوري الدهشة والسرور :

ـ جيسكار . . ماذا تفعل هنا؟

ـ أنتظرك .

وهو يتقدم، أصيبت بالإحباط لرؤية أن وجهه كان قناعاً قاسياً من الغضب .

ـ سألتك أين كنت؟

ـ تعطلت السيارة . . مرتين .

ـ مرتين؟

لعقت شفتيها :

ـ أليس . . من الأفضل أن ندخل المطبخ؟ فقد نزعج الآخرين بصوتينا .

ابتعد عن طريقها ليتركها تمر دون أن يجيبها . . وهي تمر شعرت به كمصدر حرارة مرتفعة بسبب قوة غضبه وغيظه التي تكاد تخرج منه . .

قالت بخفة وهي تدخل إلى المطبخ :

ـ أوه . . كنت تصنع القهوة . . إنني أتوق لشراب ساخن بعد كل هذا التأخير .

سمعت إغلاق باب المطبخ وهي تتقدم لشرب القهوة، لكنها لم تع أن جيسكار أصبح قريباً وراءها إلى أن التفتت لتأتي بكوب معلق على حمّالة داخل خزانة أدوات المطبخ .

فجأة أطبقت يده على معصمها الممدود فشهقت مرة أخرى توتراً الآن . . وللمرة الثالثة سألها : أين كنت؟

ـ جيسكار . . أرجوك . . أنت تؤلمني!

لم يخفف قبضته . . بل قال عبر أسنانه :

ـ كم أود لو أضعك على ركبتي لألقنك درساً لن تنسيه بسرعة . . أتعرفين كم الوقت الآن؟ الساعة تقارب الثالثة صباحاً! وكان من المفترض أن لا تتأخري بعد منتصف الليل .

ـ أعرف هذا . . لكن . .

ـ لا تقولي لي «لكن» يا فتاة . بما أن من أخرجك الليلة لديه سيارة لا يعتمد عليها فلا شأن لك أن تكوني معه!

كانت هذه المرة الأولى خلال تعارفهما تسمعه فيها يستخدم مثل هذه الألفاظ أمام امرأة . . كان هذا أحد الأشياء التي أعجبتها فيه . . كانت تعلم أنه قد يستخدم هذه اللهجة مع رجال غيره لكنه معها لم يقل كلمة تخدش سمع راهبة . . وغضبه الآن أربكها وأخافها . . لكنها قالت محتجة :

ـ لو أنني كنت أعرف أنك قادم الليلة لما خرجت أبداً . . لكن أي شخص كان يمكن أن تتعطل سيارته .

رمقته بعينيها وقابلت عينيه الغاضبتين بتحد كانت بعيدة جداً عن الإحساس به . . وقال موافقاً :

ـ بالطبع هذا ممكن . . لكن أي شخص لديه اعتبار لمشاعر الناس كان يمكن أن يتصل لشرح أسباب التأخير .

ـ حاولت الاتصال . . عدة مرات . . لكن اثنان من أكشاك التلفون على الطريق كانت مشغولة وعندما وجدنا واحداً كان الخط هنا مشغولاً .

ـ لم يحدث هذا خلال الساعات الأربع الماضية . . كان بإمكانك الاتصال في أي وقت بعد الحادية عشرة .

ـ أنا لم أحاول الاتصال بعد الحادية عشرة متعمدة . . قالت لي كارولين إنهما سينامان باكراً لأنهما كانا يتأخران كثيراً في الخارج أوائل الأسبوع . . وفكرت أنهما لن يكونا ممتنين إن أيقظتهما . . وكيف لي أن أعرف أنك هنا؟ . . تكمن لي وكأنك أب قلق .

اشتدت قبضته على معصمها :

ـ أين كنت الليلة؟ ومع من؟

ـ ذهبنا إلى حفلة في «هايتفيلد» . كنت مع ريتشارد . . ريتشارد ويكلي .

ـ ومن كان يقيم هذه الحفلة؟

ـ فتاة اسمها دينا . . صديقة لي .

ـ أكان والديها موجودان؟ هل التقيت بهما؟

ـ لا . . لم ألتقِ بهما . . لكنني أظنهما كانا هناك في جزء آخر من المنزل فهو منزل كبير .

ـ ذلك الرجل . . وبكلي . . كيف تعرفت به؟

ـ عبر فتاة في صفي . . حقاً جيسكار . . قد يظن من يسمعك أنك محقق يحشر مجرماً! ماذا بحق السماء تظنني كنت أفعل؟

ـ أنا لا أشك في شيء . . لكنني أعرف أنك عذراء . . وكنت آمل أن يمارس إيڤان وكارولين إشرافاً يكفي لتأمين بقاءك هكذا . . هناك مخاطر لا تعرفينها هنا . . كلها كريهة كتلك التي دفعتك إلى التنكر كصبي في أميركا الجنوبية .

ـ ربما يوجد . . لكنني لم أقع الليلة في أي منها . . ريتشارد ولد لطيف ولم يعطل السيارة عن عمد . . كان ذلك . .

ـ تسميه ولداً؟ كم عمره؟

ـ أكبر مني بسنتين .

ـ إنه ليس ولداً . . إنه رجل مكتمل الرجولة، ألا تظنين أنه من سوء التقدير أن تخرجي إلى الريف مع رجل لا تعرفينه جيداً؟ لنفترض أن الحفلة انقلبت إلى حفلة فسوق؟ فمثل هذا يحدث عندما يدير الآباء عيناً عمياء .

ـ ربما . . لكن هذا لم يحدث الليلة . كانت حفلة عادية مسالمة . . وأنت تفتعل ضجيجاً حول لا شيء .

ـ أنا أفتعل الضجيج لأنك عدت في وقت متأخر . . ولأنني انتظرتك لثلاث ساعات تقريباً ولأنك لم تصلي إلى البيت في منتصف الليل كما كان يفترض . . كنت أتساءل بقلق أين أنت وماذا يمكن أن يحدث لك .

ـ قلت لك أين كنت، وأن لا شيء حدث لي . . وأنا الآن متعبة وأريد الذهاب إلى النوم لا أن أقف لتمارس تسلطك ومضايقتك عليّ . .

صمتت والغصة في حلقها تريد البكاء .

ابتلعت الغصة في حلقها بقوة . . وقست صوتها لتكمل بغضب :

ـ من حسن حظي أنني أقيم هنا . . فلو عشت معك لما كان لي أي حرية . . يبدو أنك لا زلت تظنني طفلة . . لكنني لست طفلة . أنا امرأة الآن وأستطيع الاعتناء بنفسي .

خمدت حرارة الغضب الدفاعي بعد ثوان من اشتعالها . لكن ليس قبل أن تشعل لهيباً في العينين الضيقتين الناظرتين إليها . . وقبل أن تدرك ما الذي يفعله ترك معصمها وأمسكها بذراع واحدة بينما أرجعت يده الأخرى رأسها إلى الخلف .

ـ إذا كنت واثقة جداً من نفسك هذه الأيام . . فاظهري لي كيف يمكن أن تعالجي موقفاً كهذا . . لو كنت واحداً ممن تتواعدين معهم وأحاول التحرش بك .

ـ لا . . لا أحد منهم . . يمكن أن يتصرف هـ . . هكذا .

ضحك بخشونة :

ـ هذا افتراض يثبت قلة خبرتك! أي رجل يمكن أن يتصرف هكذا . . وإن لم يفعل أحد حتى الآن فقد كان مجرد حظ!

ضغطها إليه أكثر وبرقت عيناه بالسخرية :

ـ لديك عشر ثوان بالضبط لتظهري لي كيف تتجنبين من يحاول معانقتك . . سيرينا .

أخذ يعدّ وهو متمتع باضطرابها . . ولم تبدُ العشر ثوان طويلة هكذا أبداً . وأحست أنها عالقة في الفخ، نصف خائفة ونصف مثارة . . هل ينوي حقاً تنفيذ تهديده؟ وبدأ قلبها يخفق بسرعة لكنها لم تشعر بضربات قلبه .

ـ أرجوك جيسكار . .

توسلها الهامس لم يؤثر مطلقاً على عده العكسي :

ـ . . ثلاثة . . اثنان . . واحد . . صفر .

أغمضت عينيها عندما انحنى رأسه . . كيانها كله يستعد ليتحمل عناقاً متوحشاً قاسياً معاقباً .

لكنه اكتفى بضغط دافيء لجسدها المرتجف في خضوع غريزي .

هذا هو جيسكار الذي عاشت معه لأشهر محمية آمنة . . فكيف يمكن لأي شيء يفعله أن يثير ذعرها؟ لقد حلمت طويلاً بهذا . . وتاقت إليه . . وتخيلت ردة فعلها . . وها هي الآن فرصتها لتثبت ادعاءها بالنضوج .

لكن يبدو أن محاولتها غير الواثقة لتثبت شوقها أشعلت في نفسه

مشاعر لم تكن متحضرة لها..

أحست بنفسها تذوب تحت ضغط ذراعيه الفولاذيتين.. عندما أبعدها عنه قليلاً لم تفتح عينيها بل بقي وجهها مرتفعاً إليه وهو يقول:

ـ أرأيت؟ ليس هناك طريقة تستطيع فتاة أن تدافع عن نفسها فيها ضد رجل متطلب.

لكن لهجته لم تعد غاضبة.. بل كانت..

فتحت سيرينا عينيها لترى ما إذا كان تعبير وجهه تغير مثلما تغير صوته.. وهي تفعل هذا تمتمت:

ـ لا أظن أن هذا كان مجرد عرض.. لقد كنت راغباً في عناقي.

تركها فجأة متأثراً بكلامها حتى أنها تهاوت إلى الخلف على الطاولة، بينما استدار هو ووقف قرب البراد وظهره لها.. فسارعت تقول:

ـ أنا آسفة.. قول سخيف تفوهت به.. لم أكن أعنيه..

التفت إليها بعد صمت قصير، وقال مقطباً:

ـ ما قلته كان صحيحاً. لكننا سنناقش هذا في الصباح. أما الآن فيجب أن تكوني في الفراش.. تلقت كارولين مكالمة بينما كنت في الخارج من والدتها تقول إن زوجها مريض، وسيمضيان الليل عندها. ولقد أخذا الیندرا معهما.. وقلت لهما إنني سأبقى مع التوأم إلى أن تعودي.. لكنني لن أعود إلى منزلي في مثل هذا الوقت.. سأستخدم غرفة الضيوف.

ـ لكن الفراش ليس محضراً.. وستحتاج إلى..

ـ لقد وجدت الشراشف اللازمة.. اذهبي إلى النوم.. أرجوك.

كان الأمر لا يحتمل الجدال.. وتمنت له ليلة سعيدة بارتباك، وفعلت ما أمرها به لكنها أرقت لوقت طويل قبل أن تنام.

في الصباح أيقظتها مينا:

ـ سيأخذنا عمي جيسكار اليوم إلى المدرسة.. ومن الأفضل أن تستيقظي في حال اتصلت أمي أو أبي قبل أن يعود فقد يكون لديهما رسالة هامة.

مدرسة التوأم لم تكن بعيدة لكنها كانت إلى الجانب الآخر من طريق مزدحمة خطيرة.. لذا كانت مهمة سيرينا أن ترافقهما إلى هناك كل

صباح.

عندما عاد جيسكار بعد أن ناب عنها كانت في الطابق الأسفل شعرها ممشط وزينتها خفيفة.. ترتدي بذلة من المخمل المضلع الزهري كانت هدية الميلاد من كارولين. وما إن فتحت له الباب حتى سألها:

ـ ألم يتصل إيڤان بعد؟

هزت رأسها: لم يتصل بعد.. شكراً لك لإيصالك التوأم.. هل تناولت شيئاً من الفطور معهما؟

رن جرس الهاتف قبل أن يجيبها.. وكانت كارولين.. تقول إن زوج أمها في العناية الفائقة، وإنها ستحضر أمها لتبقى معها إلى أن يزول الخطر عنه.. وإنها ستكون في المنزل وقت الغداء.. بعد أن أوصلت هذه المعلومات إلى جيسكار سألته مجدداً:

ـ هل تناولت الفطور مع الولدين؟

ـ أجل.. ألا يجب أن تكوني الآن في طريقك إلى مدرستك؟

ـ لا، فهذا أحد أيام راحتي أساعد فيه كارولين.

ـ هكذا إذن.. في هذه الحالة سأنطلق في طريقي.

ـ لكنك ليل أمس قلت.. إنك ستناقش الأمور في الصباح.

ـ ليس هناك الكثير يمكن مناقشته.. لكن إذا كنت مصرّة سأبقى لتناول فنجان قهوة.

قالت بارتباك وهو يجلس مستنداً إلى الطاولة وذراعاه مطويتان:

ـ قلت «إذا كنت مصرّة» وكأنك تظنني غير متعقلة.. لكنك لا تستطيع معانقة شخص هكذا.. ثم ترحل وكأن شيئاً لم يحدث.

ـ لكنني أتصور أن هناك من عانقك قبلي.

ـ ليس كثيراً.. ولا هكذا.. وإذا كنت قد رغبت في معانقتي فلماذا أنت مستعجل للرحيل.. بدلاً من المحاولة مرة أخرى؟

وهي تتكلم تقدمت إليه ووضعت يديها على صدره ورفعت وجهها إليه وابتسامة خجولة ومحبة على شفتيها.. وضع جيسكار يديه على يديها الصغيرتين.. وللحظة ظنته سيكرر العناق.. ثم، أزاح يديها عن صدره وتركهما إلى جانبيها.. وقال بهدوء:

ـ لأنني أحاول دائماً أن لا أكرر أخطائي.. ومعانقتك كانت غلطة.. كنت متعباً وقلقاً عليك.. وكنت تبدين لي أكثر نضوجاً من العادة.. هكذا فقدت السيطرة على نفسي بضع لحظات.

ـ لكن.. جيسكار.. لقد غدوت كبيرة الآن.. لم أعد تلك النحيلة الهزيلة التي التقيتها.. انظر إليّ.. لقد أصبح مقاسي اثنا عشر.

ـ أجل.. لديك شكل جميل.. لكن سيبقى الأمر بالنسبة لي اعتداءً على قاصر.. تظنين نفسك تحبين لكن قد يكون هذا ليس إلا وهم مراهقة.. أنت لم تشاهدي الكثير بعد لتعرفي أين هو مستقبلك.. الناس يتغيرون ويتطورون طوال حياتهم، لكن لا يتغيرون بقدر ما يحدث لهم وهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين.. ولو أنني حرٌّ الآن لما وخزني ضميري كثيراً.. لكنني لست هكذا.. لقد توليت أمر كريبتون.. وهذه مسؤولية تتطلب الامتناع عن أشياء كنت أفعلها دون تردد في يوم ما.. لكنني الآن مستعد للاستقرار.. أما أنت فلا.. ليس قبل بعض السنوات.

أرادت أن تحتج: أنا.. أنا..! لكن الكلمات ماتت قبل أن تخرج.. وقالت بصوت منخفض:

ـ في هذه الحالة ربما من الأفضل أن لا أحضر إلى كريبتون..

قال حازماً: لا تكوني سخيفة.. أين يمكنك الذهاب؟ أنت مرحب بك دائماً في كريبتون.. وما حدث ليلة أمس لا يغير هذا الواقع.. كان الأمر مجرد عناق بحق السماء!

كان مجرد عناق؟ التجربة الأكثر سحراً والأكثر تغييراً للعالم في حياتها!!

بدأت الغلاية تنفث رذاذاً من القهوة الساخنة على الطباخ لأنها تركتها على نار قوية فسارع جيسكار ورفعها ثم سألها:

ـ هل هناك قماش للمسح؟

ـ أجل.. اسكب أنت القهوة وسأفعل هذا بنفسي.

رحبت بالتهائها عنه.. فلو لم يكن قربها لاستمرت في الوقوف هناك كالبكماء يرافقها شعور بالخزي لاكتشافها أنه يعرف مشاعرها نحوه..

وأن عناق الأمس المحموم لم يكن له ميزة عنده.

شرب قهوته وهو واقف وبسرعة.. وما إن أنهت تنظيف الطباخ وجزءاً من الرف الملاصق له حتى كان نصف كوبه فارغ.. وقال:

ـ من الأفضل أننا لا زلنا على البر الآن.. لو أننا كنا لا نزال نعيش فوق المركب لكان الموقف يوقع قديساً في التجربة.. وأنا لم أكن يوماً من القديسين.. حتى الآن ليس من السهل أن أقاوم سيرينا.

كانت تعرف أنه يحاول إنقاذ كرامتها.. لكن مهما قال فلا يمكنه أن يداوي جرحها.. بقيت صامتة.. فأكمل:

ـ أنا أكبر منك باثنتي عشرة سنة.. وأن أورطك في أية علاقة عدا الزواج فهذا فعل سيدينه كل من له ذرة أخلاق. والزواج الآن خارج عن أي سؤال.. لقد ألزمت نفسي بمشروع سيكون حملاً ثقيلاً لعشر سنوات قادمة على الأقل، وأنت صغيرة جداً لتحمليه معي.. وبعد سنة أو سنتين ستكونين ممتنة لأنني لم أسمح لك بالمشاركة.

تمتمت بصوت أجوف: وهل سأكون ممتنة؟

رد بثبات: أجل.. الآن يجب أن أذهب.. لدي موعد غداء في كريبتون وعدة أعمال أخرى مختلفة..

استدار حول الطاولة وأمسك يدها بين يديه، وأكمل:

ـ تعرفين الآن أنني أجدك جذابة جداً.. وأرجو منك أن تعرفي أنني أثمّن صداقتك جداً فأنت الشخص الوحيد الذي يفهم أنني كنت أفضل أن لا أرث كل هذه المسؤوليات.. كان هناك وقت تحكم إحساسك بالمسؤولية نحو والدك بكل تصرفاتك سيرينا.. وها هو كريبتون الآن يتحكم بتصرفاتي.

بعد أن رحل صعدت ببطء إلى غرفته لتنتزع المفارش التي نام فوقها.. وتحضر الفراش لوالدة كارولين. كان قد ترك الغطاء مفتوحاً إلى الخلف.. وباندفاع متهور استلقت ووضعت خدها على الوسادة.

هذا أقرب ما ستتمكن يوماً من مشاركته في وسادة.. لن يحتضنها بعد الآن.. ومع أنه قد يكون يعني ما قال من أنها ستكون على الرحب والسعة دائماً في كريبتون إلا أن وضعها هناك أصبح مستحيلاً.

إلى أين ستذهبين إذن؟

فكرت بهذا.. إلى أين يمكن أن تذهب؟ أليس هناك حقاً وسيلة للهرب من بؤس رؤيته كل نهاية أسبوعين وهي تعرف أنه لن يحبها أبداً؟

فجأة خطر الرد ببالها.. لكن ليس الآن.. ليس مع قلق كارولين الحالي على أبيها.. لكن وفي أسرع وقت ممكن ستسافر إلى إيطاليا تحاول أن تجد عائلة أمها.

كانت قد وفرت كل المال الذي كانت تعطيها إياه كارولين بإصرار.. وبإمكان الطلاب السفر بأسعار أرخص بكثير من الآخرين.

نهضت من السرير يخامرها شعور بالتعاسة لكن هناك فسحة أمل على الأقل وهي الخطط التي تفكر بها وسوف تنفذها.. ولن يفيدها أن تخبر أحداً عنها مسبقاً فإن قالت إنها راحلة فقد يحاول أحدهم منعها.. لذا ستبقي الأمر سراً.

* * *

٨ ـ امرأة وحيدة جداً

التقت سبرينا كيرك وانتغ في حفلة أقامها في ڤيلته في «نوسكانا».. كان يملك كذلك بيت تزلج صغير في فرنسا، وشقة في لندن. وقيل إنه مليونير جداً..

مضى على وجودها الآن في إيطاليا سنة.. مع أنها لم تكن سنة سعيدة إلا أنها كانت مليئة ومسلية.. فمنذ أن وطأت تراب إيطاليا قامت بجهود مشددة لتبعد الماضي بعيداً عن تفكيرها وتركز على الحاضر.

أولى اهتماماتها كانت تقفي أثر أقارب أمها.. كان هذا أمراً سهلاً جداً.. فاسم أمها قبل الزواج المدعوم بالصورة التي على القلادة قادها فوراً إلى اسم عائلة معروفة مركزها الرئيسي في ڤيلا على بعد أميال قليلة من «فلورانس».

كتبت بحذر إلى جدتها بإيطاليتها التي تعلمتها في المدرسة.. فجدها كما قيل لها مات منذ زمن.. شرحت في هذه الرسالة أنها وحيدة في العالم وأن لا جذور لها في أي مكان آخر وأنها عادت إلى بلاد أمها الأصلية.

لم يصلها أي رد لمدة شهر ووصلت إلى استنتاج بأن جدتها فضلت أن لا تعيد فتح فصل تعيس الحظ من تاريخ عائلتها.. كانت تفهم هذا وتتوقعه.. مع ذلك فقد بدا لها من قلة اللياقة أن لا يعترف أحد بوصول الخطاب الذي ضمنته غلافاً معنوناً إلى عنوان بنسيون رخيص كان أول مكان سكن لها في روما.

في أحد الأيام عادت من عملها بعد أن وجدت لنفسها عملاً كساقية

www.elromancia.com

في مطعم للبيتزا، فرأت منظر غير اعتيادي لسيارة فخمة متوقفة في الباحة الحقيرة التي يقع فيها البنسيون.. ما كانت لتلاحظ سيارة «الألفا روميو» لولا أن انتباهها انشد إليها بتعليقات إعجاب من مجموعة صبيان صغار يتحلقون حولها.

ـ لحظة من فضلك سيرينا.

في البداية لم تدرك أن السائق يوجه إليها الكلام، لكنه أضاف بالإنكليزية:

ـ أنت الآنسة سيرينا فرايزر أليس كذلك؟

توقفت.. وأدارت عينين محتارتين إليه.

كان قد ترجل من السيارة لكنه بقي واقفاً قربها.. رجل في مثل طولها ممتلىء الجسم ووسيم بشكل كلاسيكي.. وبدا أنه بنفس عمر جيسكار.

ـ نعم.. أنا سيرينا فرايزر.. كيف عرفت؟ ومن أنت؟

ـ لقد تعرفت إليك.. هناك لوحة في منزلي قد تكون صورة لك.. ما عدا أن الشعر والثياب هما لجيل مختلف. أنا ابن خالك ستيفانو الابن الأكبر لأكبر أشقاء أمك. منذ وفاة جدي وأبي أنا الآن رأس العائلة.. يجب أن تعذرينا لتأخرنا بالاعتراف بوصول رسالتك ابنة عمتي سيرينا.

انتقلت عيناه من وجهها إلى وجوه الأولاد المتفرجين عليهما، وإلى عدد من النسوة المستندات إلى حديد الشرفات المليئة بالغسيل المنشور في المنازل المحيطة.. وقال:

ـ لن نستطيع الكلام هنا.. أيمكن أن ترافقيني إلى مكان صحي أكثر من هذا لنتعارف بسلام؟

ترددت سيرينا.. فقد وجدت أن الإيطاليين الرجال أكثر رقة في اهتمامهم من الإنكليز.. والمدة القصيرة التي أمضتها في روما جعلتها حذرة من جنس الرجال كلهم لأنهم سريعون في تفسير البسمة أو الكلمة اللطيفة العادية كدعوة لمغازلتها.

على أي حال لم يكن هناك طريقة يعرف فيها هذا الرجل من هي، إلا إذا كان كما يدعي ابن خالها. لذا قالت: حسن جداً.

تبعته إلى المقعد الأمامي من السيارة حيث فتح لها الباب.. وقال

معلقاً بينما انطلقت السيارة إلى الأمام:

ـ هذا ليس بالجوار الجيد.

ردت سيرينا: ربما لا.. لكنه وديّ.. وأتمكن هنا من التدرب على لغتي الإيطالية أكثر مما أستطيعه في مكان أكثر أناقة في روما.

لم يكن في ردها أي معنى مزدوج لكنه وجد فيه واحداً.

ـ أستطيع أن أؤكد لك أن أياً من أقاربك لا ينوي التصرف معك بشكل غير وديّ ابنة عمتي سيرينا.. سبب تأخري في مقابلتك حتى الآن هو أنني كنت مسافراً عندما وصل خطابك إلى جدتي.. ومضى وقت طويل قبل أن تكتشف زوجتي وجوده.. أترين.. جدتي.. وجدتك كذلك.. طاعنة في السن.. ولم تعد تمتلك كل قواها.. نظرها كان أول ما فقدته، وهذا يعني أن الرسائل القليلة التي تصلها إما أن تقرأها لها زيزينا زوجتي، أو خادمتها التي تماثلها سناً لكن نشاطها لا يزال جيداً.

صمت وركز اهتمامه على السير المزدحم لبضع لحظات، ثم أكمل:

ـ مثل الكثير من الطاعنين في السن، تتذكر جدتي شبابها بوضوح أكثر من الماضي القريب.. كانت متزوجة دون سعادة إلى أصعب الرجال مراساً.. وأحياناً تنسى أنه لم يعد حياً ليكدر حياة كل من يخالف رغباته.. حين قرأت لها خادمتها رسالتك خافت كثيراً كي لا تقع الرسالة في يد زوجها فأمرت ماريكا أن تمزق الرسالة، ثم تحولت إلى حالة نفسية لم تعد فيها تتحدث سوى عن طفولتها.

صاحت سيرينا بألم: أوه.. يا إلهي! لو كنت أعرف أن الرسالة ستكدرها إلى هذا الحد ما كنت أرسلتها.

رد عليها: أنا مسرور لأنك أرسلتها، فأنا لست ذلك الطاغية المستبد مثل جدي ولا أحب أن أفكر بوجود أي شخص من دمنا ولحمنا خارج العائلة.. خاصة إذا كان ابتعاده لا علاقة له به. لحسن الحظ لم يتحمل ضمير ماريكا السر الذي فرضته عليها جدتي.. أخيراً أقنعتها زوجتي التي تشعر كثيراً بقلق الآخرين أن تكشف عما كان يقلقها.

لم تعد الطريق تتطلب كل اهتمامه فالتفت إليها باسماً:

ـ أنا أكثر كرماً من جدتي لكنني أقل طيبة من زوجتي، فكرت أنه من

الحكمة أكثر أن أتعرف إليك قبل دعوتك للانضمام إلى أهل منزلي.

ردت شامخة برأسها قليلاً:

- لطف منك أن تفكر بهذا، ابن خالي ستيفانو.. كل ما أريده هو إرضاء فضولي الملحّ حول أقاربي الوحيدين، وربما لأجد أصدقاء أستطيع أن ألجأ إليهم في حالات الطوارىء. لكن في الأحوال العادية أنا قادرة تماماً على الاعتناء بنفسي.

رد بإنكليزية أكثر تماسكاً من إيطاليتها:

- لكن حكماً على مكان سكنك ليس بطريقة ملائمة لمركزك كقريبة لي.. أنا أحيي فيك روح الاستقلالية.. لكنني لا أستطيع التصديق أنك فعلاً تتمتعين بعملك الحالي.

ذكرتها خشونة صوته بشخص آخر، الذكرى الدائمة كانت مؤلمة في مدينة مليئة بالرجال ذوي الشعر الأسود مع أن القليل منهم من هو بطول جيسكار وبنيته. كانت تفاصيل كل يوم تخزها بوخزة شوق مؤلمة للرجل الذي تتوقع أن لا تراه مجدداً.

سألت: كيف تعرف أين أعمل؟

- أرسلت صبياً لأعرف ما إذا كنت في المنزل.. فجاءت صاحبة المنزل لتتكلم معي.. ولم يكن من الصعب أن أعرف الكثير عنك.. في البداية شكت في دوافعي.. لكن بعد أن أقنعتها بأنه ليس هناك ما قد يخيفك مني أسرّت لي بأنك فتاة محترمة ولطيفة جداً.. وتظن أنه لم يمض وقت طويل بعد على خسارتك أحد أبويك أو كلاهما، وقالت إنك تعطين انطباع الحزن. لكن حسب رسالتك لجدتي فقد علمت أن والدك مات منذ مدة. ألا زلت حزينة على فقدانه؟

- سنيورا برونو مخطئة.. أنا لست حزينة.. الواقع أنني لم أكن متعلقة جداً بوالدي.. وأخشى أن يكون جدك على حق في الحكم عليه.. مع أنني لا زلت أعتقد أن من الظلم التبرؤ من أمي لأنها تزوجت بغير رضاه.. لكنني لا أعرف القصة من جميع نواحيها.. بل وجهة نظر أبي فقط.

- عليك أن تتحدثي في هذا مع زوجة عمي الأصغر.. كانت صديقة

مقربة من أمك.. وبإمكانها أن تقص عليك الجانب الآخر من القصة.

منذ ذلك اليوم تغيّر كيان سيرينا وتبدل تماماً. ستيفانو وزيزيتا ضماها تحت جناحيهما الوافري الثراء.. وأراداها أن تعيش حياة الترف والتكاسل الاجتماعي التي عاشتها زيزيتا قبل أن تتزوج وتصبح أماً.

لكن سيرينا أصرت على أن تؤسس مستقبلاً عملياً لنفسها.. عندها علما أنها لن تقتنع فاستخدما نفوذهما ومعارفهما لمساعدتها.

في الوقت الذي التقت فيه بكيرك وانتغ، كانت قد أجادت الإيطالية جيداً وغدت أناقتها أفضل بكثير من ذي قبل وأكثر حنكة. لستة أشهر خلت كانت تعمل كمساعدة عامة لأشهر دار أزياء في إيطاليا.. كان عملاً وجد خصيصاً لها لأن زيزيتا كانت إحدى الزبونات المفضلات للدار وهذا ما أتاح لسيرينا أن تراقب كل أوجه إدارة دار كبيرة للأزياء.

كانت تعرف أن كيرك وانتغ قبل أن تلتقيه رجل في الأربعينات من عمره، أرمل وله ولدان مراهقان في مدرسة في سويسرا.. قبل إنه كان يحب زوجته لكنه الآن مستعجل جداً للزواج مجدداً.

قالت زيزيتا وهم في الطريق إلى الحفلة:

- كل من يعرفه يعلم بأنه ليس لديه أية علاقات مع النساء، فهو يعيش لعمله فقط.

وضعها مماثل لوضعه، نوعاً ما أحست بميل مسبق نحوه.. لم يكن فظاً أو متسلطاً حين رقص معها خلال السهرة بل بدا مهتماً فعلاً بالغوص لمعرفة تفاصيل حياتها مما زادها إعجاباً به.

بعد يومين من حفلته وجدته بانتظارها فور انتهاء عملها ليدعوها إلى العشاء معه فترددت في قبول دعوته.

سألها: مم أنت خائفة؟ أن أتحرش بك؟

- ليس لديك مثل هذه السمة.. لكن..

- ربما بعد عشرين سنة قد أبدأ بملاحقة فتاة بمثل عمر ابنتي.. لكن هذا ليس من طرازي الحالي.. مع أنني نادم لأنني لم أنجب ابنة فأنا أحب الإناث.. لكن معظم من ألتقي بهن من نساء يهتممن أساساً بثرائي إلا إذا كن سعيدات في زواجهن لكنني لا أعتقد أنك تهتمين أبداً بهذا، وقد

أعجبني فضولك حول عملي.. واهتممت بمشاريعك.. فهل يطمئنك هذا؟

هكذا بدأت صداقة آمن ستيفانو وزيزيتا أنها لن تبقى أبداً على هذا المستوى طويلاً.. وبما أنهما لم يتوقفا عن محاولة ترتيب زواج جيد لها فقد قبلت عرض كيرك في أن يموّل لها عملاً.. وصدقته عندما أخبرها بأنه ليس هناك أية ارتباطات متعلقة بهذا العرض.. لم تتسرع في القبول لأن لديها شكوك من هذه الناحية بل لأن هذا يعني أن تعود إلى انكلترا.

كان يريدها في انكلترا لأنه يقضي معظم وقته هناك لأن جلّ ما يبغيه من هذا كان صحبتها فقط حين يرغب.. كانت متأكدة تماماً أن هناك امرأة أخرى في حياته تعتني باحتياجاته الجسدية، لكنها ليست مؤهلة لأن تصغي إليه جيداً بذكاء حين يرغب في الكلام.

استأذنت سيرينا بالرحيل عن أقاربها بعد أن شعرت بأنها فرضت نفسها عليهم طويلاً وإحساس بعرفان جميل يتملكها تجاههم.

وصلت إلى لندن هذه المرة بمشاعر مختلفة.. أولها كان إحساسها بالإثارة لأنها ستتمكن من تأسيس محل تصميم للأزياء دون حاجة للقلق المادي.. ما يكبح هذا الحماس هو خوفها من لقاء جيسكار.. لكن لندن مدينة كبيرة. وربما ليس هناك خطر كبير في تلاقيهما، لكن من المحتمل أكثر أن تلتقي بكارولين.

في عيد ميلادها الواحد والعشرين وبعد سنة من العمل الكاد المتواصل، أقام كيرك لها احتفالاً واختار أن يكون المضيفان زوجان صديقان له منذ سنوات عديدة. ولأنه رجل معروف للناس كان مصراً على أن لا يتعرض لمروجي الشائعات لئلا يكدروا صداقته البريئة مع سيرينا.

كان دائماً يتحدث أمامها عن زوجته الراحلة ساندي، كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة، وقد ماتت في الثلاثينات من عمرها إثر مرض عضال فشل أفضل الأطباء وأحدث المعالجات المتقدمة في شفائه.

كادت سيرينا لمرة أو مرتين أن تفضي إليه بسرّ تعاستها، لكنها في النهاية احتفظت بسرها لنفسها.

في الحفلة كان الجميع معروفاً بالنسبة لها والكل كان يحمل هدية إلى

«بلانكا» كما كانت معروفة بالنسبة لهم. كيرك وحده يعرف اسمها الحقيقي.. قدم لها هدية متواضعة هي عبارة عن كتاب عن حياة وعمل أشهر مصممي الأزياء، كان يعلم مسبقاً بأنها ستعجب به.

بعد بضعة أيام من الحفلة كانت تقرأ «التايمز» كما تفعل كل صباح عند الفطور.. لفت نظرها عنوان نعي: اللايدي روزيلاند فيذرستون.. قرأته والدموع في عينيها فقد أحبت العمة الكبيرة الغريبة الأطوار، وأسفت لتغاضيها عن صداقتها في آخر سنتين من حياتها.

كانت مسافرة في اليوم التالي إلى إيطاليا لعطلة أسبوعين، هكذا فاتها رؤية إعلان الجنازة التي سيرأس لائحة المحزونين فيها المركيز الجديد.

مر على عودتها إلى انكلترا سنتين.. قالت لها مساعدتها مارسي ذات صباح إنها وصديقها الحالي أمضيا اليوم السابق سوية. كان يوم أحد خريفي رائع في منزل تاريخي قرب قرية قديمة.. سألت سيرينا دون حذر:

ـ أوه! وأي منزل هذا؟

حين أخبرتها مارسي الاسم أجفلت:

ـ وهل تمتعتما به؟

ـ كثيراً.. يجب أن تزوريه يوماً آنسة فيرونزي. إنه قصر قديم رائع الجمال. أخذنا معنا سلة الطعام الخاصة بالنزهات.. لكن ليتنا لم نفعل فقد كانوا يقدمون وجبة طعام جيدة في قاعة الزراعة الزجاجية.

ـ هل رأيت أحداً من المالكين؟

ـ كان هناك رجل أسمر طويل جداً خرج من باب عليه لوحة «مدخل خاص» اعتقدنا أن له شبه كبير بصور العائلة.. لكنني لا أظنه المركيز، فقد ابتسم لنا وقال: «مساء الخير» وكان يرتدي كنزة زرقاء وبنطلون جينز قديم.. أظنه كان أحد العاملين هناك.

حتى الآن، وبعد هذا الزمن الطويل، نادراً ما يمر يوم دون أن تفكر بجيسكار.. الرجل الوحيد الذي كانت تتمتع بصحبته كان كيرك الوحيد الذي كانت تسترخي معه فقد كانا دائماً يملكان ما يتحدثان عنه.. صحيح أنها لم ترد له دينه كاملاً بعد، لكنها خطت خطوات كبيرة على الطريق.

مع اقتراب عيد ميلادها الثالث والعشرين، ازدادت سيرينا إحساساً أن حياتها فقدت الاتجاه والدافع وذلك رغم تركيز أعمالها واستحسان أكبر كتاب النقد لأزيائها.

ماذا بعد؟ كان هذا سؤال يرتفع كالسيف المسلط فوق رأسها.. خاصة في الساعات الصعبة من الليل عندما كانت تشعر بالأرق.

الرد المنطقي هو الزواج.. مع أن كل ما عليها هو الاتصال بواحد من عدة معجبين من الشبان ليأتوا إليها راكضين، فالرجل الوحيد الذي أحست أنها قادرة على تحمله هو كيرك.. لكنه لا يزال يفتقد لزوجته الميتة وينظر إليها كابنة له.

كانت قد مرت أربع سنوات منذ رحيلها المحطم القلب من انكلترا، حين انطلقت مجدداً إلى إيطاليا لقضاء عطلة مع أقاربها.

في اليوم السابق لسفرها سافر كيرك إلى أميركا في عمل.. واتفقا على أن يلتقيا للعشاء بعد عودتها، وهي تأمل أنها حتى ذلك الوقت ستتمكن من رفع معنوياتها المنهارة.

عادة بعد عودتها من عطلة أو رحلة عمل كانت سيرينا تتشوق لهفة للعودة إلى العمل.. لكنها هذه المرة لم تشعر بمثل هذه الحماسة.. فبدلاً من أخذ سيارة أجرة إلى مشغلها لتطمئن أن كل شيء يسير على ما يرام، اتصلت وتحدثت مع المسؤول.

عادة كانت تجلب لفافة مليئة بالرسومات والملاحظات التي كانت تنتظر أن تحولها إلى تصاميم. لكنها هذه المرة، ورغم من تسجيلها لبعض الملاحظات، لم تشعر بنفاد صبر لاستخدامها. المهنة التي شغلتها لفترة طويلة بدت وكأنها فقدت قوة جذبها وإرضائها.

مساعد بائع الأزهار، الذي كان يأتي مرتين في الأسبوع لينسق الزهور في صالة العرض، أحضر زنابق بيضاء للواجهة ونرجس لمنضدة الكتابة حيث يحرر الزبائن شيكاتهم.

حين عادت سيرينا من تسوقها القصير كانت رائحة الزنابق تضفي ذكرى حية لذلك الصباح في غابة «هوم وود» في أملاك كريبتون يوم التقيا موريا آرتشر.

التقيا.. حتى الآن بعد مرور هذا الزمن الطويل كان من السهل أن تفكر بنفسها وبجيسكار بتعريف واحد.. وكأنهما زوجان بدلاً من أن يكونا شخصين سارت حياتهما في خط متواز لفترة قصيرة من الزمن، لكن هذين الخطين لم يتمازجا في خط واحد أبداً كما كانت تحلم يوماً.

قالت مارسي: أليست الزنابق جميلة؟

وافقتها سيرينا الرأي.. ثم تذكرت يوم ربيع آخر.. عندما كانا عائدين من زيارة اللايدي روزيلاند:

«ـ كانت هذه تنهيدة عميقة تشيكيلا.. ألحظ فيها قلقاً محدداً.. ربما كان لمسة حمى الربيع.. في مثل سنك هذا الوقت من السنة له تأثيره الخاص.

ـ لكن ليس في مثل سنك؟

ـ بلى.. أحياناً حتى في مثل سني. لكنني هذه السنة لدي مشاكل أخرى».

أخذت تحدث نفسها: أنا الآن أكبر بأربع سنوات وأكثر حكمة.. يجب أن أركز على مشاغل أخرى.. لا أن أضيع الوقت في ذكريات عاطفية حول حب المراهقة.. وأنبت نفسها وهي تصعد السلم الضيق إلى شقتها الصغيرة في الأعلى.

كانت الشقة في الماضي أربع علّيات ضيقة.. أصبحت الآن غرفة واحدة لكل الاستعمالات مع حمام صغير.. فيما مضى عندما كانت تعود إلى وكرها بعد التحليق بعيداً، كانت تحس بسعادة وهي تفتح الباب وتدخل مسرح حياتها الخاصة الجذاب.

لكنها ليلة أمس عندما وصلت بعد حلول الظلام لمست الزر الكهربائي قرب الباب الذي يضيء ثلاثة مصابيح صغيرة مغطاة بإطارات من الحرير.. نظرت إلى منزلها من زاوية مختلفة.

ثم مرة أخرى هذا الصباح، بدا لها أن السجادة العاجية اللون المفروشة من الحائط إلى الحائط والوسائد المنجدة بألوان شاحبة اختارتها بنفسها لتجعل الغرفة تبدو أكبر مما لو استخدمت فيها ألواناً مبهرجة، كان للغرفة بالفعل نفس الأثر لكنها كذلك أعطت جواً غير حقيقي.. كأنها

غرفة مصورة في مجلة.. من يتمكن من إحاطة نفسه بمثل هذا اللون الناعم الزهري، والأزرق، والليموني، والمشمشي، ويفرش تحت قدميه سجادة ناصعة ممكن لأصغر لطخة أن تظهر عليها فوراً، إلا امرأة وحيدة، أو رجل مخنث؟

فجأة رأت الغرفة كمكان فارغ وموحش لم يبعثر فيه طفل فتات خبزه، ولا نبشت قطة وسادة صوف بمخالبها، ولا أفسد عناق محب ترتيب الوسائد على الصوفا المنجدة بقماش حليبي رائع، هي فراشها كذلك.

إنه فراش مزدوج لكنها دوماً تنام فيه وحدها.. مع أن الكثيرين وحكماً على مظهرها المحنك لا يصدقون أنها لم تتخذ لنفسها حبيباً.

في اليوم التالي وهي تتجه للقاء كيرك في مطعم «ماكوزين» جاهدت لتبدو مرحة، وعلى الأقل لم تفقد شهيتها، فالمطعم له مستوى يجعل من الضروري بعض الأحيان الحجز قبل ستة أسابيع لإيجاد طاولة.

أخذا يتبادلان تفاصيل رحلتيهما حول المائدة.. فجأة وفي منتصف الوجبة الرئيسية.. فاجأها بالقول:

ـ كنت سأستمتع بالرحلة أكثر بكثير لو كنت معي.. لطالما كنت ضد الزواج بين من هم من أجيال مختلفة.. لكنني أعتقد أن بإمكاننا أن نتفق.. فما رأيك بالفكرة؟

قالت وهي تحاول أن تبدو مرحة:

ـ تبدو لي فكرة رهيبة كيرك.. يا له من مكان غريب لتطلب يدي!

ـ أعتقد أنك على حق.. أنا آسف.. ربما لم يخطر ببالي مثل هذا من قبل.. أنت صغيرة جداً للقبول بما هو أقل من حب رومانسي كبير.. أما أنا فأميل إلى أن أنسى كم أنت صغيرة.. صحيح أنك تبدين صغيرة بالفعل لكن تصرفاتك تبدو أكبر بكثير من تصرفات الفتيات في الثالثة والعشرين.

ـ الفكرة خطرت ببالي أنا كيرك.. لكنني لم أعتقد أنها ستخطر لك.. لكن الآن وقد أثرت الموضوع عرفت أنني ومع إعجابي الكبير بك لن ننجح.. ليس السبب الفارق في السن.. بل لأنني لا زلت مغرمة بشخص آخر.

ـ عرفت هذا منذ التقينا.. لكنه أمر مر عليه زمن طويل.

ـ هل كنت تعرف به؟

ـ خمنته.. لأنني كنت أرى التعاسة في عينيك.. حين يكون الإنسان تعيساً يلاحظ الدلائل عند الآخرين.. ما الذي حدث؟ أم تفضلين عدم الكلام؟

ـ لا.. أستطيع أن أخبرك كل شيء..

شرحت له أسباب لجوءها إلى إيطاليا باختصار فقال معلقاً حين انتهت:

ـ كان على حق طبعاً.. فتاة في الثامنة عشرة ورجل في الثلاثين أو يزيد هما من جيلين مختلفين مثلنا الآن. لقد تغيرت كثيراً منذ عرفتك وتغيرت أكثر منذ آخر مرة رأيت فيها ذلك الرجل.. لماذا لا تذهبين لرؤيته سيرينا؟ قد تجدين أن ما كنت ترينه فيه لم يعد له وجود.

ـ ربما.. لكنني لا أظن أنني نظرت يوماً إلى الحياة والناس عبر منظار زهري حتى عندما كنت أصغر سناً.. خيالاتي مشتتة منذ الطفولة.

ـ لن تستطيعي الاستمرار في العيش ضمن قوقعة عزيزتي.

تنهدت: أعرف هذا. لقد توصلت إلى هذا الاستنتاج بنفسي. أنا.. آسفة لأنني لا أستطيع قبول طلبك.

بعد افتراقهما تملكها إحساس أن كيرك رغم أنه أخذ رفضها بخفة، فمن المؤكد أنه سيضع حداً لصداقتهما.

لم يمض وقت طويل على عودتها إلى المحل، حتى استدعتها مارسي إلى الأسفل لتعتني بأهم زبونة لديها.

بعد مغادرة اللايدي لوكوود مبتهجة بالفستان اللماع الذي ستكون هي أول من يرتديه، بقيت سيرينا تتحدث لبعض الوقت مع مارسي.. ثم قالت:

ـ يجب أن أعود إلى العمل.

بينما كانت تصعد عبر القنطرة التي توصل إلى السلم، سمعت من يفتح الباب نحو الردهة الضيقة داخل الباب.

نظرت من فوق كتفها، وهي تعلم أن من سيدخل ستنعكس صورته على المرآة الضخمة الإيطالية ذات الإطار الخشبي المذهب، المعلقة على

الجدار المقابل.

ما أن رأت الرجل الذي دخل، حتى جمدت واتسعت عيناها غير مصدقة..

إنه جيسكار!

***

٩ ـ مطر الماس

قالت سيرينا بيرود: كيف حالك جيسكار؟ تبدو بصحة جيدة.

تجاهل تعليقها:

ـ ظننتك في مكان ما من إيطاليا.. منذ متى عدت إلى انكلترا؟

ـ مكثت في إيطاليا ستة فقط.. وما تبقى من وقت كنت فيه هنا.. أنا..

صمتت بعد أن فُتح الباب ودخلت امرأة أنيقة الملبس في حوالي الثلاثين من عمرها.. قالت:

ـ آسفة لتأخري حبيبي.. لقد تأخرت في محلات «هارڤي».

والتفتت إلى مارسي: مرحباً.

قال جيسكار: لقد تبين أن مصممة الأزياء المفضلة لديك هي صديقة قديمة لي، كلارنس.. واسمها الحقيقي سيرينا فرايزر، هذه كلارنس فنغرتون، سيرينا.

قالت المرأة تمد يدها لمصافحتها وعيناها البنيتان تبرقان فضولاً:

ـ كيف حالك آنسة فرايزر؟.. متى وأين عرفتما بعضكما؟

ردت سيرينا: منذ زمن طويل في أميركا الجنوبية.. كيف حالك؟

استدارت إلى مساعدتها: إذا رغبت في أخذ فرصة راحتك الآن مارسي لا مانع لدي أنا سأعتني بالسيدة فنغرتون.

هزت مارسي رأسها واختفت في الطابق الأعلى، تاركة ربة عملها تسأل كلارنس فينغرتون عما تبحث عنه.

قالت المرأة: أتساءل عما إذا كان لديك بلوزة أستطيع أن أرتديها مع تنورة اشتريتها في الخريف الماضي. إنها سوداء من الحرير السميك.

ـ أوه.. أجل.. عرفت ما تعنين.. هل اشتريت معها البلوزة

www.elromancia.com

المناسبة لها؟

ـ أجل، أنا أرتديها طوال الشتاء.

خلعت السيدة فنغرتون سترتها فتقدم جيسكار وأمسكها لها وهي تحرر ذراعيها منها.. أكملت:

ـ لكنني يجب أن أستغني عنها لوقت ما.. المشكلة في نماذج ثيابك، آنسة فرايزر، أن المرء يميل إلى أن «يعيش» فيها.. لا شيء يعجبني من ملابسي أكثر من تلك التنورة وتلك الكنزة.. لكنني لن أستطيع الاستمرار في ارتدائها سنة بعد سنة.

سأل جيسكار: لست أدري ما يمنع.. أنا أفعل هذا.

ابتسمت السيدة له وقالت:

ـ إنه أمر مختلف بالنسبة للرجال، ليس من المتوقع منكم ملاحقة التغيرات.. على عكسنا.

قالت سيرينا بخفة: أجل في الواقع.. إذا لم يكن الأمر هكذا فمن هم أمثالي سيفلسون.. ومع أن الرجال دائماً يدعون أن لديهم ملابس أقل من النساء يرتدونها لزمن طويل، فإن عدد خياطي الرجال ومحلات الثياب الرجالية لا يدعم مثل هذا الادعاء.

لم يكن من عادتها أن تهذر، وسعت لتسيطر على أعصابها وأجبرت نفسها على التركيز على كنزة تتلاءم مع التنورة السوداء.

كانت غرفة القياس صغيرة.. ومن عادة سيرينا أن تترك النساء يجربن ما يردن وحدهن، إلا إذا احتجن إلى مساعدة أو خرجن لسؤال رأيها أو رأي مارسي.

الآن تمنت لو أن غرفة القياس أوسع كي تقفل على نفسها مع السيدة فنغرتون بدلاً من البقاء في الخارج. بعد لحظات من اختفاء مرافقته، قال جيسكار:

ـ لقد قدمتك باسم سيرينا فرايزر.. لكن ربما أحد هذه الخواتم هو خاتم زواج..

ردت: لا.. كلها خواتم للزينة. لست متزوجة.. لكن أتوقع أن تكون أنت متزوجاً.. من كانت الفتاة المحظوظة؟ موريا أم هيذر؟

ـ لقد افترضت أنك ستتزوج إحداهما.. لكن ربما فيما بعد وجدت فتاة جميلة وأصيلة وثرية، لتكون ماركيزتك، لورد كريبتون.

لم تستطع إخفاء المرارة من صوتها.. وقد لا يكون من الإنصاف أو الحكمة أن توبخه أو تسخر منه لاختياره زوجة عن طريق تفكيره بعقله بدلاً من قلبه.. لكنها وجدت أنها غير قادرة على منع نفسها.

قال بحدة: افتراضك مخطىء.. موريا وهيذر متزوجتان الآن.. لكن ليس مني.. أنا لا زلت أعزباً.

جاء دورها لتبدو مذهولة: حقاً؟

ـ ومن المحتمل أن أبقى هكذا.

ـ ولماذا تقول هذا؟

ـ أشك في أن تهمك أسبابي آنسة فرايزر.

ـ أنا.. كنت آسفة جداً لقراءة نعي اللايدي روزيلاند.

ـ حقاً؟

جعلتها السخرية في صوته تقول:

ـ أجل.. كنت حزينة.. لقد أحببتها وأعجبت بها كثيراً.

ـ لكن ليس بما يكفي لتكتبي لها في المناسبات.

ـ لا شك أنك تعرف أنني لا أكتب كثيراً.. ثم إنني لم أكتب لها خوفاً من أن تعرف منها مكان وجودي، ثم تأتي لتجرني للإقامة مع موريا أو هيذر، لأنني في عمر الثمانية عشرة كنت لا أزال صغيرة.. مجرد طفلة.

ـ كنت أعرف مكان وجودك إلى أن بلغت العشرين، كنت أعرف بالضبط أين أنت. بعد ذلك..

ترك الجملة مفتوحة وهو يهز كتفيه.

ـ كيف تمكنت أن تعرف؟ لا أصدق هذا.

ـ في البداية سكنت في بانسيون وعملت في مطعم للبيتزا، ثم أخذتك عائلة أمك تحت جناحها.

اتسعت عينا سيرينا غير مصدقة:

ـ كيف علمت كل هذا؟

ـ لقد خمنت أنك ستذهبين إلى إيطاليا.. وإلى أين غير هناك؟ لكنني

تكلفت الكثير من المال لتقفي أثرك وحركاتك.. في نهاية السنة سافرت بنفسي لأتأكد من أنك حقاً تتمتعين بالحياة بقدر ما تقول التقارير، وكنت تتمتعين! أمضيت جزءاً من أمسية أراقبك ترقصين وتعبثين مع شاب يدعى ريكاردو غانتي في ملهى ليلي.

ذكرت تلك الليلة بوضوح وتذكرت ذاك الشاب الإيطالي الوسيم الذي وقع في حبها.. وتذكرت أيضاً أنها كانت تحاول أن تكون مرحة رغم الألم الذي يعتصر قلبها.. ذلك الألم الذي لا ينتهي ولا يمكن شفاؤه.

تمتمت بصوت منخفض: كنت هناك.. كنت.. بقربي.. أوه.. يا إلهي!

ـ بما أنني أخذت مسؤوليتك على عاتقي فأحب أن أؤديها على أكمل وجه.. كما أن معرفة العمة روزيلاند بأنك في رعاية سعيدة أراح بالها.. فقد أساءت تفسير تعلقك المراهق بي بعاطفة أكثر عمقاً.. لكنني حددت تلك المشاعر بأنها حب مراهقة.. ولم أرغب بأن تقلق حول أنك كنت تتألمين.. في نهاية السنة الأولى لك في إيطاليا كنت تمضين وقتاً رائعاً.

قبل أن تتمكن من تصحيح هذا الاستنتاج، خرجت السيدة فنغرتون من غرفة القياس وهي تقول:

ـ أعجبتني هذه.. ما رأيك حبيبي؟

مر وقت طويل قبل أن يجيبها جيسكار، وكانت سيرينا واثقة أن المرأة لم تكن غبية لتفشل في التعرف على أن حديثاً غير الأحاديث العادية المهذبة كان يدور خلال غيابها.. أخيراً قال:

ـ إنها رائعة جداً كلارنس.

وقالت سيرينا: إنها تناسبك. لكن ربما ترغبين في تجربة واحدة أو اثنتين قبل أن تقرري سيدة فينغرتون.

ـ لا.. أعجبتني هذه.. شكراً لك آنسة فرايزر..

قالت سيرينا:

ـ الأكمام طويلة قليلاً.. علينا تقصيرها كي تناسبك وهذا قد يستغرق أسبوعاً أو عشرة أيام.

ـ سيكون هذا مناسباً.

أخذت سيرينا مقاس التعديل المطلوب وعادت المرأة إلى غرفة القياس لتخلعها.

قال جيسكار: سأعيد كلارنس إلى منزلها.. لكنني سأعود.. أين تسكنين؟

ـ هنا.. فوق المحل.. في الطابق الأعلى.

ـ سأعود في التاسعة.

رفعت حاجبيها:

ـ وهل تعجب هذه التصرفات المتسلطة صديقاتك من النساء لورد كريبتون؟

رأت عضلة صغيرة في فكه تنتفض:

ـ إذا نادبتني هكذا مرة أخرى..

وصمت.. بعد جهد ظاهر لاحتواء امتعاضه.

ـ هل لديك ارتباط الليلة لا تستطيعين الخلاص منه؟

ـ لا.. في الواقع.. أنا حرّة هذا المساء.

ـ إذن أعتقد أن لا اعتراض لديك إن زرتك في التاسعة.. سأحاول أن لا آخذ الكثير من وقتك، لكن هناك بعض الأسئلة أريد منك الإجابة عليها.

ترددت.. لو أنها رفضت رؤيته لا يمكنه فرض نفسه عليها.. أم يقدر؟ في هذه اللحظات يبدو قادراً على ارتكاب جريمة.. لماذا هو غاضب وشرس إلى هذه الدرجة؟

أجابته ببرود يماثل برودة: حسن جداً.

ثم استدارت لتكتب إيصالاً بالكنزة التي اشترتها السيدة فنغرتون.

حين عادت مارسي بعد عشر دقائق وجدت ربة عملها تجلس وراء منضدة الكتابة تغطي وجهها بيديها.

صاحت بدهشة: آنسة فيرونزي.. هل أنت بخير؟

رفعت سيرينا رأسها:

ـ أجل.. بخير تماماً.. شكراً لك مارسي.. كانت صدمة أن ألتقي اللورد كريبتون هكذا.. بعد زمن طويل.

www.elromancia.com

ـ حين ذهبت وصديقي لرؤية القصر القديم وسألتني ما إذا كنت شاهدت اللورد واللايدي كريبتون.. لم تقولي لي بأنك تعرفينه.

ـ لا.. فمعرفته أمر كنت أحاول أن أنساه.

أضافت بتهور مغاير لتحفظها العادي:

ـ كنت أحبه عندما كنت صغيرة منذ سنوات.

وأضافت في نفسها: ولا زلت أحبه وسأبقى أحبه، فليساعدني الله!

قالت مارسي: لا يمكن أن يكون هذا منذ زمن بعيد، فأنت لا زلت صغيرة.

ابتسمت سيرينا متعبة:

ـ تبدو كل سنة وكأنها خمسة بعد أن تجد الواحدة منا الرجل المناسب لها ولا تكون هي المناسبة له.

ـ لا يبدو أنه اختار المناسبة له على أي حال.. ونسبة للطريقة التي تناديه بها «حبيبي» استنتجت أنه وتلك السيدة مجرد صديقين مقربين كما يقولان.

ـ أجل.. هذا ما يبدو.. موافقة. لكنه لا يخون زوجته.. فهو غير متزوج. ولا أعرف لماذا لا زال أعزباً.

ـ ربما قرر فيما بعد أنك أنت المناسبة، آنسة ڤيرونزي.

هل يمكن أن يكون هذا؟ هل من الممكن؟ لا.. لا.. بآمال زائفة كهذه قد يتحطم قلبها إن صدم في النهاية.. وهزت رأسها:

ـ لا.. مارسي.. إنه يعرف مشاعري نحوه مع أنني لم أكن أدرك هذا حتى الآن، كان يعرف أين يجدني مع أنني قطعت شوطاً طويلاً في محاولة نسيانه.

أوقف حديثهما دخول زبونة أخرى.. فصعدت سيرينا إلى مشغلها.. تعرف أنها لن تستقر على أي شيء بل تشعر أنها ستحتاج إلى كل ذرة من الدعم الفكري والنفسي لمواجهة جيسكار في الساعة التاسعة، اتصلت بصالون التجميل وطلبت الكلام مع مزينها ووافق أن يستقبلها بين آخر زبونتين له اليوم.

فجأة فكرت بأحدث تصميم لها: فستان السهرة اللماع الملون بألوان

المحيط.. لمَ لا؟ لِمَ لا تريه بأم عينه ما الذي خسره؟ تصاعدت في نفسها كبرياء الدفاع.

كانت جاهزة في الساعة الثامنة، لا شيء تفعله سوى أن تذرع شقتها جيئة وذهاباً تتساءل ما إذا كان ارتداءها هذا الفستان هو عمل أحمق أم لا.. فمع أن الناس يقولون لها إنها جميلة فهي لم تفكر بنفسها كامرأة جميلة.. لكن الليلة سيكون تواضعاً زائفاً لو أنها لم تعترف لنفسها، مؤيدة بالفستان وبراعة مزينها وربما بالتوتر المتصاعد في داخلها، أن لديها الكثير.

في الثامنة والنصف رن جرس باب الشارع.. فأجفلت واتجهت إلى الهاتف الداخلي: من الطارق؟

ـ جيسكار.

ضغطت الزر الذي يفتح الباب له آلياً:

ـ أرجوك تأكد من إقفال الباب جيداً.

ألقت نظرة أخيرة على صورتها في المرآة، فرأت العينين الخضراوين البراقتين باهتياج مرتبك.. ورأت بشرتها العاجية المكشوفة تحت الياقة المنخفضة وصدرها الذي يعلو ويهبط بشكل ظاهر قبل أن يرن جرس الباب.

سمعته يصعد المجموعة الثانية من الدرجات بقفزات واسعة لثلاث أو أربع درجات.. ثم دق الباب بنغم ملحّ.. أخذت نفساً عميقاً لتهدىء نفسها يرافقها إحساس بالغثيان بشدة توترها واتخذت الوضعية التي قررتها ونادت: أدخل.

بينما كان يدخل الغرفة اختبرت أحاسيس مصارع الثيران عندما يدخل الثور إلى الحلبة.. إحساس المسيحيين الأوائل بعد إطلاق أسد ضخم عليهم.

لمح جيسكار صورتها المنعكسة في المرآة المقابلة للباب قبل أن يراها.. كانت تتظاهر بوضع آخر لمسات لباقة من الورود الحمراء الطويلة الساق اشترتها بنفسها وهي تغادر محل مصفف الشعر، آملة أن يظنها مرسلة لها من رجل.

www.elromancia.com

قالت: جئت مبكراً.. هل تعيش السيدة فنغرتون في لندن أم خارجها؟

استدار جيسكار يواجهها، عيناه الرماديتان تجوبانها من الرأس حتى القدم ثم تعودان صعوداً مرة أخرى.

قال بشيء من السخرية متجاهلاً سؤالها:

ـ أترتدين دائماً هكذا لأمسية في البيت؟

ـ قلت إنك لن تطيل المقام هنا.. هناك حفلة سأذهب إليها فيما بعد. أتود شرب شيء؟

ـ ليموناضة.

خلع معطفه ورماه فوق كرسي، بينما كانت تحضر له شرابه رأته ينظر حوله.. سألها وهي تقدم له شرابه:

ـ شكراً لك.. أتعيشين هنا لوحدك؟

ـ المكان أصغر من أن يَسع لأكثر من شخص واحد.. ولقد أخبرتك بعد ظهر اليوم بأنني لم أتزوج.

ـ هناك العديد من الناس غير المتزوجين هذه الأيام.. لكن لا يعني هذا أنهم يعيشون وحدهم.

ـ هذا ما يعنيه بالضبط في حالتي أنا.. لقد تزوجت من عملي.

ـ لقد أصبح عملك ناجحاً بشكل خيالي في مدة قصيرة. لكن.. يبدو أن إعطاءك كل وقتك له مضيعة لأشياء كثيرة تمتلكينها.. لا أصدق أنك تضيعين كل وقتك، كما لا أصدق أنك مرتدية ثياب سهرة للخروج إلى حفلة.. أنا لم أولد بالأمس عزيزتي.. أنت متأنقة هكذا لأجلي.. مع أنك مع ما أصبحت عليه من نضوج لا تحتاجين إلى أية إضافة صناعية، لتصبحي مرغوبة.. كنت جميلة جداً آخر مرة رأيتك فيها في ذلك النادي في إيطاليا.. لكن ذلك لا يقارن مع ما أنت عليه الآن.. أنا واثق تماماً أنك تعرفين هذا.

تراجعت سيرينا إلى الكرسي في الجانب البعيد من الغرفة. فوضع كأسه دون أن يتذوقه، وتقدم ببطء نحوها، عيناه الرماديتان ضيقتان ولامعتان.. بماذا؟.. مع تصاعد الذعر فيها أدركت أنه لمعان الرغبة.

جلست مسمرة لوضوح نواياه. أمسك معصميها وشدها لتقف، وقال بصوت أجش:

ـ على أي حال.. بما أنك أتعبت نفسك بالتأنق فمن الفظاظة أن أرفض الهدية.

عادت إلى الحياة بعد جمودها لكن متأخرة. وهي تحاول تخليص معصميها، لفهما خلفها، وهي تحاول المقاومة أسكتها بالعناق.. وكان عناقاً طويلاً محطماً لم تعرف مثله من قبل. وقبل أن يبتعد عنها لم يكن يحتضنها بقوة.. ذراعاها كانتا طليقتين، وملتفتين حول عنقه.

لو أنه رجل آخر لاستطاعت مقاومته دون صعوبة. لكن لم يكن هناك طريقة تمكنها من مقاومة هذا الرجل.. ليس وهي بين ذراعيه أبداً. ثم فجأة خافت من مشاعرها ومنه.

ـ لا.. أرجوك جيسكار.. انتظر..

ـ لقد انتظرت.. لسنوات لا حصر لها.. الآن وقد وجدتك مجدداً.. لن أرفض ما عرضته عليّ قبلاً.. أنت الآن امرأة كاملة النضوج وجميلة.. وأنا أريدك.

ضمها مجدداً.. قاومته على مضض، وقالت هامسة:

ـ الأمر الوحيد الذي أريد اطلاعك عليه هو أن هذه ستكون المرة الأولى بالنسبة لي..

سألها بلهجة من لا يصدق:

ـ أتعنين أنك لا زلت عذراء؟

ـ أجل.

تمتم:

ـ لا أصدق.. فتاة بمثل حلاوتك.. لا زالت...! يا إلهي.. لا شك أن هناك عشرات الرجال حاولوا إغواءك.

ـ ليسوا بالعشرات.. بضعة فقط.. لم أخرج مع الكثيرين. لقد قلت لك كنت منكبة على عملي.

ـ لكنك الآن في الثالثة والعشرين.. أنت بكل تأكيد لم تتجاوبي مع عناقي كفتاة لا خبرة لها.. باردة.

ـ أنا لست باردة.. لكنني لم أرغب يوماً في علاقة عابرة.. بل أردت الحب، وهذا أمر مستحيل.

أخذ ينظر إليها الآن نظرة مختلفة.. البريق الحار الشرس للرغبة تلاشى من عينيه.. أضحت نظرته مفكرة ومتفرسة مليئة بالحيرة.. وقال:

ـ لماذا مستحيل؟

أصبحت كل مشاعرها العميقة طافية قرب السطح.

ـ لأنني.. لأنني امرأة لرجل واحد.. أنا لم أتوقف يوماً عن حبك.. أوه.. اللعنة عليك، جيسكار..

تجاوزته بشهقة بكاء حادة لتنهار دامعة عيونها فوق الكنبة.. دون الاهتمام بشعرها أو بماكياجها أو بقماش مفارش الكنبة الزهرية الحريرية التي دفنت فيها وجهها، بكت بشهقات نحيب مرتجفة للعبة القدر القاسية التي أعادته إلى حياتها.

أحست به يجلس إلى جانبها ويضع يده على ظهرها المرتج.. تمنت لو يرحل.. بكل تأكيد لا يمكنه أن يتصور أنها ستسمح له بالبقاء معها الآن.. ليس بعد أن اعترفت أنها تحبه.

مرّ وقت طويل قبل أن يتوقف بكاؤها.. بقيت مستلقية ووجهها مخبأ.. ومرهق بعاصفة من البؤس.

سمعته يقول بهدوء: اصغي إليّ سيرينا.. لا فائدة من أن أدعي أنني رجل مخلص، لأنك تعرفين أن هذا غير صحيح.. كان في حياتي نساء قبل أن أعرفك. وفي السنوات الأربع الماضية كان لي علاقات عابرة، مع من لم يكن يرغبن مثلي بالالتزام. بعد ظهر اليوم، سألتني لماذا لم أتزوج.. الرد هو أن المرأة الوحيدة التي أردتها أن تكون زوجتي كانت صغيرة جداً يوم عرفتها. فيما بعد هربت مني وبعد سنة فقدت آثارها.. وأملت أن تعود إليّ لوقت طويل.. لكنني في النهاية اضطررت لأن أستنتج أنها لن تعود أبداً.

أنهى كلامه ثم حرك يده حتى أمسكت بكتفها وأدارتها مع أنها تعرف أنها تبدو مشعثة، والكحل يلطخ وجهها، وخديها مبللين بالدموع.. إلا أنه كان على وجهه تعبير حنون وهو يتابع قوله:

ـ لم أعرف أنني أحبك إلا بعد رحيلك.. هذه الليلة أتيت ههنا وأنا أظنك أصبحت امرأة عاملة ومحنكة.. متأكداً من أنك قد مررت بعدة تجارب.. لكن أن أجدك لم تتغيري أبداً عدا عن ازدياد جمالك أمر لم أتصوره أبداً ولا أستطيع استيعابه.. فهل لا زلت تحبينني حقاً بما يكفي لتتزوجيني؟

استلقت سيرينا بين أكوام الوسائد والمفارش ترمقه بعينين متسائلتين ودامعتين بدموع الحب.

ـ بما يكفي؟ أوه جيسكار.. لو تعلم كم أحبك؟ الزواج منك سيكون.. كالنعيم.

دس كلتا ذراعيه تحتها ورفعها ووضع رأسها على كتفه وتمتم:

ـ لا تبكي.. يا فتاتي الحلوة.. يا حبي.. لقد انتهى العذاب الآن.. نحن معاً، وكل شيء على ما يرام.

بعد قليل أبعدها عنه وقال:

ـ هذا لن يفيد.. كان من الصعب عليّ مقاومتك عندما كنت في التاسعة عشرة.. لكن.. الآن..

وقف وقطع الغرفة متأملاً إحدى لوحاتها.

أدركت أن هذه الحركة هي في سبيل الانضباط النفسي. وزاد حبها له لقدرته على ممارسة هذا النوع من التحكم النفسي.. فهو يعرف أن هذا ليس الوقت المناسب لإخماد جذوة حب طال ألم اشتعالها.

فيما بعد، غسلت وجهها وارتدت روب منزل حريري، ودخل جيسكار إلى مطبخها ليحضر عشاء خفيفاً. فيما كانا يتشاركان بطبق البيض المقلي الكبير مع الفطر والسلطة والخبز. قال لها:

ـ ما لا أفهمه هو لماذا ساورتك تلك الفكرة المجنونة بأنني سأتزوج من موريا أو هيذر.

أخبرته سيرينا عن اليوم الذي كانت فيه في المكتبة وسمعت العمة روزيلاند تقول إنه غير مضطر إلى التفتيش بعيداً عن زوجة.

ـ لكن.. يا فتاتي العزيزة.. كانت تعنيك أنت. وقتها كان رأيها بأنك بعد بضع سنوات سيكون جمالك أخاذاً، مع شخصية قوية ولطيفة في نفس

الوقت.. لم تكن تدرك أنك موهوبة جداً أيضاً.. ماذا عن عملك سيرينا؟ هل ستتمكنين من إدارته وأنت في كريبتون؟ عليّ الاعتراف منذ الآن أنني لن أحتمل رؤية زوجتي في نهاية الأسبوع فقط.

ردت بغير لباقة: فليذهب إلى الجحيم.. عمالي لن يعانوا المجاعة إن تقاعدت. لا يوجد الكثيرون ممن هم بمثل مهارتهم.. لذا سيختطفهم مصممون آخرون.. لكن.. كلارنس فنغرتون.. هل هي..

رد بحزم: لا.. ليست.

ـ لكنها تناديك حبيبي.. لذا تساءلت.

ـ إنها تنادي الجميع حبيبي.. زوجها المقعد، وأولاده المراهقون، وأصدقاؤها.. لقد مضى زمن طويل لم يدخل فيه حياتي سوى شبح فتاة تدعى سيرينا.

قالت بخجل: يمكنك البقاء هنا الليلة إذا أحببت.

شدت أصابعه على أصابعها: لا.. ليس لأنني لا أريد.. بل لأنني بعد انتظاري سنوات أربعة أستطيع الانتظار لفترة قصيرة بعد.. سأمضي الليلة في النادي وسنلتقي في الغد لتناول فطور فخم في قاعة الطعام في فندق هايد بارك حيث كنت ألتقي بجدتي يوم كنت في المدرسة.. ثم سنذهب إلى مصرفي لتستعرضي مجوهرات العائلة وتنتقي منها خاتم الخطوبة، أم تفضلين أن تصممي لنفسك واحداً؟

أدار يدها وطبع قبلة على راحتها، ثم أكمل:

ـ بعد ذلك سنعلن للعالم أن الزواج السعيد سيعقد بعد وقت قصير بين المركيز المحظوظ والآنسة الحلوة سيرينا فرايزر.

تزوجا على يد كاهن بلدة كريبتون سانت ماري في الكنيسة الخاصة لقصر كريبتون.. جرى حفل الزفاف في الصباح.. وصل بعض المدعوين بمن فيهم عمّال سيرينا في الليل الفائت قبل حفل العشاء في قاعة العشاء الضخمة في القصر.

لم يتسع وقتها لتصميم فستان عرسها.. دخل عليها ابن خالها ستيفانو الذي جاء خصيصاً من إيطاليا ليرافقها إلى المذبح، إلى الغرفة التي أمضت فيها آخر ليلة لها كفتاة عزباء ووجدها ترتدي فستاناً من تصميم

أحد منافسيها.

سرح شعرها قبل قليل مزينها الخاص في لندن بعد أن دعته للاحتفال.. في الليلة السابقة رفعت شعرها بدبابيس على أشكال فراشات صينية، لكن هذا الصباح حل مكانها زهور البنفسج والزنبق في الغابة بعد أن التقطتها بنفسها، إثر تسللها من البيت قبل شروق الشمس وقبل أن يصحو أحد.

أخبرها ستيفانو عندما أتى ليرى إن كانت جاهزة:

ـ لقد كنت أنظر بإعجاب إلى كل صور الكونتيسات السابقات، بعضهن جميلات، لكنك الجميلة الحقيقية الأولى في العائلة.

ضحكت سيرينا: أنا لست جميلة فعلاً ستيفانو.. أتعرف المثل القائل «كل شيء من عمل المرآة»؟ في مثل حالتي كل شيء من عمل السعادة.. لقد كنت طائرة فوق السحاب منذ أن أخبرني جيسكار أنه يحبني.

ـ قالت زيزيتا إنك ستتخلين عن عملك لأجله؟

كان قد وصل هو وزوجته قبل وقت قصير من الاحتفال، ولم تتسنى الفرصة لها للتحدث إلى أي منهما إلى أن حضرت زيزيتا إلى غرفة سيرينا لنصف ساعة وهي تتناول فطورها.

أجابت ابن خالها: أجل، لا أقدر أن أكون بلانكا ڤيرونزي وزوجة جيسكار في آن واحد.. إنه بحاجة إلى عودتي إلى هنا.. سيكون هناك الكثير من المجالات لمواهبي كما هي الآن.. أستطيع القول إن الوقت لن يطول قبل أن أبدأ بتصميم ملابس الأطفال، فأنا أساساً مولعة بالحياة المنزلية.. وحده الحب غير المتبادل دفعني إلى أن أصبح فتاة عاملة.

دخلت إلى الكنيسة متعلقة بيد ستيفانو، كانت ترى الوجوه الكثيرة ملتفتة إليها تشم عطر النرجس والزنبق اللذان يطغيان على رائحة خشب الصنوبر الذي يكسو جدرانها.

كل عرائس كريبتون السابقات تزوجن في كنائس كبيرة، وكن من أصل نبيل أساساً بحضور عدد كبير من المهنئين.. لكن جيسكار قال إنه لا يهتم بما يظنه الناس أو بمن يغضب لأنه لم يكن من بين المدعوين

القلائل، فقد انتظرها طويلاً بما يكفي.

راقبها وهي تتقدم ببطء نحوه برافقه إيڤان بوصفه «الإشبين». كلا الرجلين كانا يرتديان بذلتين رماديتين نهاريتين، لكن سيرينا لم تكد تعي وجود إيڤان وأن كارولين في مكان قريب، ففي تلك اللحظة بالنسبة لسيرينا كان الجميع لا وجود لهم وكأنهم الأشباح. . الشخص الوحيد الموجود حقيقة هو جيسكار المبتسم لعينيها، بطريقة جعلتها تتساءل كيف تمكنت من تحمل سنوات الفراق الطويلة.

تذكرت أن تنقل خاتم خطوبتها الزمردي إلى يدها اليمنى. سحبت يدها من ذراع ستيفانو وخطت إلى الأمام بينما كان يمر خلفها ليأخذ مكانه إلى يسارها، لم تستطع مقاومة الاندفاع القوي الذي جعلها تمد يدها إلى عريسها لتتحسس قبضته القوية للحظات. . لم تكن ردة فعله بأن أخذ يدها فقط، بل أحنى رأسه الأسود الشعر وطبع قبلة على أصابعها.

كانت حركة إجلال حركتها في الأعماق. . فتلاشى من نفسها آخر أثر للشك بأنها الزوجة المناسبة له.

لكن ما رأته في عينيه بعد ساعات من المراسم، لم يكن الإجلال بل الحب المشبوب المتملك، بعد أن اختفى آخر المدعوين. . كانت تلوّح للجميع وذراعه حول خصرها، لكن ذراعه الآن اشتدت وهو ينظر إليها، يشدها بقوة إلى جانبه:

ـ ما إن نعود من شهر عسلنا يجب أن أكلف رساماً بأن يرسم لوحة لك، يا فتاتي الحلوة.

ـ كم سنغيب؟

كل ما كانت تعرفه عن خطط شهر العسل هو أنهما سيقضيان ليلة الزفاف في القصر ويسافران في اليوم التالي. . كان قد وعدها أنها ستحب المكان الذي اختاره. . ردت وهي تعني ما تقول: إن أية نهاية أسبوع في أي مكان سيناسبها طالما هي معه.

أجاب: شهر على الأقل. . ربما أكثر.

ـ أيمكنك الغياب طوال هذه المدة؟

كانت قد اكتشفت كم لديه من واجبات في حمّى السرعة خلال أسبوع

خطوبتهما، وكم كان وقت الراحة قليلاً بالنسبة إليه. أظهرت لها نظرة مفكرة مكتبته أن أسبوع العمل بالنسبة له لا يقل أبداً عن ستين ساعة. . أيامه مليئة بالمواعيد المختلفة مثل: جولة في المزرعة الجديدة. . رؤية مدير المزرعة. . ومقابلة مع المحاسبين. . ومناقشة حالة اللوحات والبسط المعلقة على الجدران مع خبير القماش. لكن بعد وقت قريب ستكون آخر مهمة ضمن واجباتها هي. .

قال: لقد أعطيت هذا المكان أربع سنوات من عمري. . فلن ينهار في أربعة أسابيع. . هل أنت متشوقة لمعرفة المكان الذي سآخذك إليه؟

ـ بل أكاد أجن فضولاً. .

ـ حسن جداً، سأقول لك. . سنعود إلى «آنتيغوا» وإلى رحلة بحرية من هناك إلى «غرينادا».

ـ جيسكار! ما أروع هذا، إنه الكمال على متن «الرين»؟ ألا زلت تملكه؟

ـ أجل. . لم أستطع إقناع نفسي ببيعه لأنني كنت أفكر بأنك ستعودين إليّ يوماً. . وهذا ما يذكرني، لدي مفاجأة أخرى لك. . إنها في غرفتنا.

ـ أيها غرفتنا؟

أمسكها بيدها وأخذ يركض بها نحو السلم الكبير.

ـ الليلة سنقضيها في السرير الكبير، طراز «كنت». عندما نعود بإمكانك اختيار أية غرفة في الجناح الخاص الذي سيعاد «تنسيقه» ليناسب ذوقك.

كانت سيرينا تذكر تماماً السرير الكبير من طراز «كنت»، وهو أكبر أسرّة قصر كريبتون.

لكن عندما رأت غرفة النوم المخملية الزرقاء الكبيرة لآخر مرة بجدرانها المكسوة بالبسط والسجاد، وسقفها المكسو باللوحات. . كانت رائحتها عفنة ومهملة والسرير نفسه غير متماسك.

جعلها القفز بسرعة فوق السلم مقطوعة الأنفاس لا تستطيع إبداء الشكوك في اختياره لتلك الغرفة. . قبل أن يصلاها نظر إليها ممازحاً:

ـ لم يعد فيها الفراش الأصلي، سيسرك هذا. . ما كان مناسباً للأمراء

والدوقات لا يناسب مليونيراً أميركياً.. نحن لا نعطيهم تدفئة مركزية بالمعدل العادي لأن هذا يجعل الأثاث يقسو.. لكننا نعطيهم فرشاً حديثة وبطانيات كهربائية.

ـ وهل تدعهم ينامون في أسرة القصر؟

ـ ولماذا لا إذا كان هذا يساعد في الحفاظ على هذه الأسرة للأجيال القادمة؟

فتح باب حجرة النوم التي أصبحت رائحتها الآن كشمع العسل والورود الندية.

تقدمت سيرينا إلى طرف السرير الأسفل، ووقفت تتأمل التصميم المتقن للجانب الأسفل من ظليلة السرير، الستائر المخملية التي كان الغبار يملؤها من قبل قد استعادت لمعانها.. الحواشي الذهبية، ولو أنها أصبحت قاتمة بمرور الزمن، كان لها مظهر متجدد.

وقف جيسكار خلفها وقال: أتى إلى هنا عالم تاريخ يسجل محتويات القصر وصف السرير أنه «ربما يكون أجمل الأسرّة فخامة في التصميم».. لست أدري ما إذا كان قد أمضى فيه أحد ليلة «فخمة» كالليلة التي أتوقعها الآن..

همست له: وأنا كذلك لا أدري حبيبي.

ضمها إليه.. وجالت شفتاه على جفنيها، ارتجفت رموشها تحت شفتيه.. وتمكنت يداها العالقتين بينهما من أن تشعرا بالخفقان السريع لقلبه المماثلة لدقات قلبها.

كان الظلام سائداً حين استيقظت وكان رأسها لا يزال على كتفه.. لكن الظلمة لم تكن دامسة فنور قمر الربيع كان يتسلل عبر النوافذ.

كان جيسكار قد صحا قبلها، أحست به يتلاعب بشعرها الذي سبق وانتزع منه الأمشاط والزنابق.

تمتمت: كم الساعة الآن؟

ـ حوالي العاشرة أو الحادية عشرة.

ـ ألن يظنوا أن.. اختفاءنا أمر غريب؟

كانت تعني الموظفين في القصر.. فأجاب:

ـ إلا إذا نسوا ليلة زفافهم.. طلبت أن يتركوا لنا بعض العشاء في غرفة جلوسي الصغيرة. لا بد أنك جائعة الآن.. أليس كذلك؟ لم تتناولي شيئاً يُذكر منذ الفطور. لقد رأيتك تعصين أوامري وتركضين نحو الغابة هذا الصباح.. كنت سأنضم إليك لولا علمي بأن النساء يعتبرن من سوء الطالع أن يرى العريس عروسه قبل الزفاف.

ـ أنا لا أؤمن بالخرافات.. عندها لم أكن قد وعدت بطاعتك بعد.. سأفعل من الآن وصاعداً.

شعرت بضحكته الصامتة.. ثم قال:

ـ في مثل هذا الوقت من الغد، سنكون حيث بدأنا على متن «الرين».

ـ قلت إن هناك مفاجأة أخرى لي.

ـ هذا صحيح.

أبعدها عنه بلطف وقفز من السرير.. راقبته سيرينا يتحرك نحو طاولة ويلتقط عنها شيئاً. هذا هو زوجها، وحبيبها، وصديقها.. وهي سعيدة الآن لأنه انتظرها وانتظرته.. لا شيء سوى الأفضل.. في كل مراحل حياتهما معاً.

قال:

ـ تعالي قرب النافذة.

طوحت بساقيها النحيلتين إلى الأرض، وتقدمت إلى حيث يقف.. كان يحمل علبة مسطحة صغيرة، حين فتحها بهرها البريق المشع داخلها حتى جعلها ترفرف عينيها. أحست وهو يحرك العلبة يمنة ويسرى وكأنها ترى قطعة من وجه القمر الذي طالما حدقت به وهي على متن «الرين».

ثم أوقف حركة يده.. وعرفت ماذا في العلبة.

ـ أوه جيسكار.. مطر من الألماس!

ـ لا تستطيعين رؤيته جيداً في مثل هذا النور.

تقدم وأضاء المصباح ثم أعطاها العلبة لترى ما فيها بالتفصيل.

كانت قد شاهدت الكثير من الحلى والجواهر في واجهات محلات المجوهرات الشهيرة في لندن وباريس وروما.. لكنها لم ترَ شيئاً يمثل هذا الجمال.

www.elromancia.com

كانت كل نوبجة من غصن زهرة رائعة الجمال. وكل ورقة مزينة بالماس الكبير والصغير، يتدلى منها خمس سلاسل مجدولة منفصلة من الحجارة الكريمة المتدرجة. كل سلسلة تنتهي إلى نقطة كأنها قطرة جليد صغيرة.

ـ حصلت عليها بصعوبة كبيرة.. منذ زمن طويل وقبل أن أقرر أن عليك التغلب على حب المراهقة طلبت من أشهر تجار المجوهرات في لندن أن يبلغوني فور وصول قطعة منها بين أيديهم، مع أن الجميع حذرني أنها أصبحت نادرة الوجود.. علمت بوجودها في مزاد علني منذ شهرين.. ذهبت لأزايد عليها بنفسي وكدت أتراجع في آخر لحظة.. فقد بدا لي أنه من غير المجدي أن أشتريها في الوقت الذي خرجت فيه من حياتي المرأة الوحيدة التي أريد أن أهديها لها، ربما تكون تزوجت سواي.

رفعت سيرينا القلادة من فراشها المخملي الأسود، ولمعت الأحجار النفيسة وكأنها النار البيضاء. كل سلسلة مدلاة كانت تتابع اهتزازها للحظات، وكانت النتيجة وكأنها قطرات مطر يهزها الريح وتنهمر من بين وريقات الزهرة.

تقدمت إلى المرآة وأمسكت الزهرة بين السبابة والابهام ووضعتها تحت تجويف عنقها.

ـ إذا كان لدينا سلسلة ذهبية لها بإمكانك ارتدائها كقلادة، إضافة إلى كونها «بروش».

لم ترد، فنظر من فوق رأسها ورأى الدموع في عينيها والارتجاف في شفتيها.

أخذ منها الحلية ووضعها جانباً وضمها بين ذراعيه وأخذ يقبل جفنيها المبللين، وتمتم:

ـ أردت أن أفعل هذا في أول مرة بكيت فيها لأجل هديتي، لكنك كنت صغيرة جداً.. وما كان ذلك سينجح.

ـ ربما لا.

أحست أنها واثقة أن حبها له ما كان ليهتز.. لكن وهي تفكر بالفتاة التي كانتها وهي في التاسعة عشرة، ساورها الشك في أن يكون لديها يومها

ما يكفي لتعطيه.

مع مطر الألماس مثبت على غلالة مشمشية من الشوفين فوق غلالة نوم أكثر شفافية. وجيسكار في روبه الحريري الأحمر، الذي تذكره من أول ليلة لها في كريبتون، ذهبا معاً إلى غرفة جلوسه الصغيرة الخاصة ليتناولا العشاء، وليتحدثا حول المركب والجزر.

في وقت متقدم حين امتلأ القصر الكبير بأصوات الساعات تدق إيذاناً بمنتصف الليل.. وهي ترتدي خفاً حريرياً حملها بين ذراعيه ليعيدها إلى غرفة نومهما.

ثم.. ولمعرفتهما أنهما قادران على النوم غداً والطائرة تقلهما إلى الكاريبي الأزرق، أمضيا الليل في سعادة وحب.

* * *

www.elromancia.com